الفصل الثاني
رواية الشعر الجاهلي في الإسلام
(عهد الصحابة والتابعين)

أضحى الشعـر الجـاهلي موروثاً آل إلى الحياة الإسلامية بالشاعر وشعره، أو بالراوية ومحفوظه، سواء ممن اختص برواية شعر شاعر بعينه، أو برواية شعر قبيلة من القبائل، أو بحفظ الشعر مطلقاً من الخصوص[1].

وعلى الرغم من كثرة هذا الموروث فإن النشاط الأدبي فيه جرى في اتجاهين يكمـل بعضهمـا بعضاً في حركة رواية الشعر في هذه الفترة:

أحدهما: يقوم على خصوص والتزام بشرف المعنى والمضمون شرطاً جمالياً في الإنشاد والرواية، فالأساس فيه خلقي ورؤيته دينيّة.

وثانيهما: مرتبط بعلم الشعر الذي لم يكن للقوم علم أصح منه، فهو يرتكز على عموم الغرض شرطاً في تحقيق غايات اجتماعية ومنافع أدبية ذات لذات عقلية ومتع فنية، فالأساس فيه علمي ورؤيته أدبية فنيّة.

ولئن بدا الاتجـاه الأول أكثـر التصاقاً بالشرف والإحسان الذي حرص المنهج الإسلامي على تحقيقه وسيادته في مناحي الحياة كلها، فإن الاتجاه الثاني يحقق ذلك على نحو من الأنحاء العلمية في الشاهد والمثل، واستمرارية الرواية التعلميّة نشاطاً أدبياً.

---

(١) انظر تفصيل ذلك: د. ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٢١-٢٤٠.

الاتجاه الأول: أبيات المعاني الشريفة: (1)

وقد جرى تداول نماذج هذه المعاني، سواء أكانت أبياتاً مفردة أو مقطعات أو قصائد، طلباً بالسؤال عنها، أو تنويهاً بذكرها عند إنشادها، أو تداعياً فرضته المناسبات العارضة والمواقف ذات الحدث الدال على غيره المشابه له.

وتتضح صورة هذا التداول في محورين ظاهرين؛ أولهما: شعر الحكمة وثانيهما: شعر القيم الخلقية والفكرية.

١ـ شعر الحكمة: (2)

غدا التعامل مع الشعر الجاهلي في الإسلام محكوماً بمنطق العقل في إطار القاعدة الإسلامية المأثورة: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»(3) التي فيها من عناصر الأصالة التواصل والامتداد ما يلغي عمق البعد الزمني، والثبات والاستمرار الذي يؤكد أن القول لا القائل هو مناط القبول، إذا كان صدى الاتجاه الصائب، ورؤية الصدق والحق، وانطباع التصور الصحيح.

---

(1) إن إطلاق هذا العنوان من باب التوسع لدلالة أبيات المعاني التي قيدها اللغويون في الأبيات المشكلة المعنى، يقول السيوطي: «وإنما سموا هذا النوع أبيات المعاني لأنها تحتاج إلى أن يسأل عن معانيها».

ولشرف المعنى دلالات عدة في النقد الأدبي بعضها بلاغي وبعضها ابتكاري فني وبعضها خلقي.

(2) هي كل كلام وافق الحق، والكلام المعقول المصون عن الحشو. (التعريفات ص٩٦).

وهي نافعة منفعة عظيمة كما يقول ابن تيمية لأنها تعطي التصديق والعمل بالطاعة للأمر والأخذ به (الفتاوى ٢/٤٤-٤٥).

(3) رواه الترمذي في سننه وقال: غريب لا نعرفه من هذا الوجه، وفي رواته إبراهيم بن الفضل ضعيف (كتاب العلم. فضل السنة والعبادة). ورواه ابن ماجة في سننه بنفس الإسناد.

وفي ميزان الاعتدال للذهبي أن إبراهيم بن الفضل شيخ مدني ضعيف لا يكتب حديثه. ورواه السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٩١ بتغيير «الحكمة... حيث ما وجد المؤمن ضالته فليجمعها» وفي أحد رواته القضاعي وهو متروك.

ولئن أصـاب كثير من الشعـر الجـاهلي هذه القـاعـدة في عموم دلالتها على التجربة، والدقة في إصابة المعنى، وتصوير واقع الإنسان والحياة، فإن قليلاً منه يوافق خصـوص الـوظيفـة التي رصدها الإسلام للشعر في تشكيل وجدان الإنسان وعقله بالحق الـذي يمنعه من الجهل والقبح والسفه، وهي ثمرة التقوى ونتاج الإخلاص والفهم وعمق الحكمـة التي جاء الحـديث الصحيح معبـراً عنها وموجهاً إليها: «إن من الشعر حكمة»[1] إذ من مقتضياتها وضع الشيء في موضعه الصحيح، فتكون بذلك كما قال بعض الحكماء «موقظة للقلوب من سنة الغفلة، ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة، ومحيية لهـا من موت الجهـالة، ومستخرجة لها من ضيق الضلالة»[2] ومن دلالالتهـا العقل والعفة والإصابة في القول كما قال مجاهد[3] في قول الله تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[4].

وتأتلف الحكمة الجاهلية غالباً مع الإسلام إذا كانت نتاجاً للفطرة النقيّة والعقل المتـدبر، لأنهما سبيلان هاديان إلى الحق؛ فمن شأن الفطرة النقيّة أن تهتدي إلى توحيد الله خالقها، ومن لوازم العقل المتدبر إقامة دلائل البرهان واليقين على وجوده، قال تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾، يقول ابن كثير

---

(١) أخرجه البخاري عن أُبيّ بن كعب في الأدب رقم (٦١٤٥) وأخرجه أبو داود عن ابن عباس في الأدب رقم (٥٠١٠). وانظر شرح الحديث (ابن حجر: فتح الباري ١٠/٥٤٠).

وأخرجه الترمذي عن ابن مسعود في الأدب رقم (٦١٤٤)، وعن ابن عباس رقم (٢٨٤٥)، ويروى: «إن من الشعر لحكماً» (سنن أبي داود ٥/٢٧٧) قال أبو القاسم الحصري: هكذا روينا الخبر، وراجعت فيه الشيخ فقال: نعم. هو «إن من الشعر لحكماً» ووجهه عندي إذا روي هكذا: «إن من الشعر ما يلزم المقول فيه كلزوم الحكم للمحكوم عليه إصابة للمعنى، وقصداً للصواب» (زهر الآداب ١/٥٢).

(٢) الحصري: زهر الآداب ١/١٠١ تحقيق محمد البجاوي.

(٣) أبو جعفر النحاس: معاني القرآن الكريم ١/٢٨٩.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٦٩.

في تفسيرها: «لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره»[1].

وحمل الشعر الجاهلي ملامح هذه الفطرة، وشواهد هذا العقل، من ذلك قول طرفة بن العبد الذي كثيراً ما كان يردده الرسول صلى الله عليه وسلم إذا استراث الخبر[2]:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وكان أصدق كلمة قالها شاعر كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم كلمة لبيد[3]

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وعن عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً ما كان يقول: أبياتك، فأنشده لزهير بن جناب الكلبي:

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه ... يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

وأنشد عند النبي صلى الله عليه وسلم قول الأعرابي:

وحي ذوي الأظعان تسب قلوبهم ... تحيتك الحسنى فقد يرقع النعل
فإن الذي يؤذيك منه سماعه ... وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا»[4].

---

(١) ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣-٥٤.

(٢) ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير ١٦٩/٣ والهيثمي: مجمع الزوائد ١٢٨/٨ فقد رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث حسن ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٥ (كتاب الشعر).

(٤) الماوردي: أدب الدين والدنيا ص ١١٦ ط الأولى وتروى الأبيات الأولى للسموءل بن عادياء ولزيد بن عمرو بن نفيل ولورقة بن نوفل (انظر الأغاني ١١٥/٣).

لكن الباحث لا يستطيع أن يمنح الفطرة الجاهلية صفاءً من غير شائبة، أو ثباتاً واطراداً من غير اضطراب وتناقض، أو أن يخلع على عقلية الجاهلي وتفكيره أنماطاً من عمق الدراية في مجال الكون والإنسان والحياة، لأن تبايناً واضحاً إلى هذه المجالات نجده في نظرة الشاعر الواحد، وتبايناً آخر ندركه في نظرة الشعراء إليها، وتصوراتهم لها. وعلى ذلك فإن الاضطراب والاختلاف والتناقض هي من صفات الرؤية الفكرية الجاهلية سواء في القيم الاجتماعية أو الدينية، وما ذاك إلا لأن الجاهلي يفتقر إلى المنهج الثابت الذي يستقي منه تصوره، ورؤيته الإنسانية والكونية.

ويتضح هذا الحكم من خلال نموذج شعري يمثل رؤية فكرية للموت عند كل من زهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة، ذلك أن وقوع الموت وقوع اختيار لا وقوع حتم وقضاء فكرة مشتركة بين الشاعر المتأله في شعره، المتدين في فكره، والشاعر المتشكك في تصوره، فلا فرق بين زهير بن أبي سلمى في قوله:

رأيت المنايا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ ومَنْ تُخْطِىء يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وقول طرفة بن العبد:

أرى الموت يَعْتَامُ الكرامَ ويَصْطَفي ... عَقِيْلَةَ مَالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

لكن فرقاً بين هذا الفهم الخاطىء في تصور الموت وتصويره، وفهم لبيد بن ربيعة الذي كان يؤمن بالبعث والحساب قبل إسلامه[1]:

وما المالُ والأهلونَ إلاَّ ودائعٌ ... ولا بُدَّ يَوْماً أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ
فلا تبعدنْ إنَّ المَنِيَّةَ مَوْعِدٌ ... عَلَيْنَا فدانٍ للطّلوع وطالِعُ
لَعَمْرُكَ ما تَدْري الضَّوارِبُ بالحَصَى ... ولا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صانِعُ

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص ١٥٣ طـ ليدن.

فالمنيّة في حضورها مقدورة بقدر الله وعلمه، وليس ثمة خطأ أو تخبط في وقوعها، ولا مجال فيها للانتخاب أو التمييز بين كريم ولئيم، أو بخيل وغني، إن لها موعداً لا تخلفه، وزمناً دقيقاً لا تتخلف عنه، وهذا ما أصابه لبيد سواء أقال ذلك في الجاهلية أو الإسلام[1]، وأخطأه طرفة، وزهير الذي كان يتأله في شعره، يقول عبد الله بن المعتز؛ قال مؤدبي أبو سعيد محمد بن هبيرة الأسدي في قول زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ....

أنه كان يسمع المشايخ يقولون: هذا بيت زندقة، وهو بعيد من أبياته التي يقول في بعضها:

فيرفع فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم»[2]

ونقده ابن شرف القيرواني بقوله: «وقد غلط في وصفها بخبط العشواء، على أننا لا نطالبه بحكم ديننا، لأنه لم يكن على شرعنا، بل نطلبه بحكم العقل فنقول: إنما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو. . . وإنما أدخل الوهم على زهير موت قوم عبطة وموت قوم هرماً، وظنوا طول العمر إنما سببه إخطاء المنية، وسبب قصره إصابتها، وهيهات الصواب من ظنه!»[3]

ومن عجب أن نجد زهيراً وطرفة يصيبان جانباً آخر من حقيقة الموت في التجربة الشعرية ذاتها، وفي الرؤية الفكرية نفسها، فالموت الذي لا مفر لأحد منه يحققه قول زهير:

وَمَنْ هَابَ أَسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ... وإن يَرْقَ أَسبابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

ويؤكده قول طرفة:

---

(١) الأبيات مختلف في زمان قولها بين الجاهلية والإسلام، والأرجح أنها قيلت في رثاء أربد بعد إسلام لبيد انظر ديوانه بتحقيق د. إحسان عباس. ود. شوقي ضيف: العصر الإسلامي ص٩٢.

(٢) المزرباني: الموشح ص ٤٤ طـ السلفية.

(٣) ابن شرف القيراوني: رسائل الانتقاد ص ٤٨.

لَعَمْــرُكَ إنَّ المــوتَ ما أَخْــطأَ الفتى لكــالــطِّولِ المُــرْخَى وثِنْياهُ في اليدِ

الذي يعني «أن الإنسان وإن طولَ له في أجله، فهو آتيه لا محالة، وهو في يد من يملك قبض روحه، كما أن صاحب الفرس الذي قد طول له، إذا شاء اجتذبه وثناه إليه»[1].

إلّا أن بيت زهير، وإن حلا لبعض الباحثين أن يوجد شبهاً بينه وبين قول الله عز وجل: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾[2] مخالف في تصوره للفهم الإسلامي خاصة في قوله «أسباب المنايا» إذ ليس للمنية من سبب إلّا انتهاء الأجل، فهو سبب واحد وليس أسباباً، وما يظن أنه من أسباب المنية كالمرض والحوادث المنوعة إنما هي ظروف وأحوال تصاحب المنية وترافق أوانها، وثمة فرق بين الظرف المصاحب والسبب، ذلك أن السبب ينتج عن المسبب حتماً، وأن المسبب لا يمكن أن ينتج إلّا عن سببه وحده، بخلاف الحالة والظرف فإنهما ملابسات وعرض لا متعلق للموت بهما. فانتهاء الأجل سبب يقع الموت بوقوعه ولا يتأخر عنه.

ولو صح أن يكون الظرف أو الحال سبباً لاقتضى اطراد الموت بوجوده، والواقع المشاهد المحسوس مغاير لذلك تماماً، فليس كل مرض مآل الحال به إلى الموت، فقد يقع المرض عينه عند أكثر من شخص ولا يكون الموت مطرداً، وليس كل حادث مؤداه إلى موت من تعرض له، فقد يقع الموت مع حادث ولا يقع مع الحادث نفسه وهكذا[3].

غير أن من الظروف والأعراض (الآفات التي تعرض للإنسان) والأغراض ما يلازم

---

(١) الأعلم الشنتمري: شرح ديوان طرفة بن العبد ص ٣٧.

(٢) سورة النساء: آية ٧٨.

(٣) انظر محمد محمد إسماعيل: الفكر الإسلامي ٣١-٣٤.

المنية ملازمة الحزام للسرج فيكون من عُلُقها، وهو ما جاء به حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خط النبي صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً، وخط خطوطاً صغاراً إلى هذا الخط الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الاعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[1].

وعدّ ابن حجر العسقلاني هذه الأعراض والآفات من أسباب الموت فقال: «والحاصل أن من لم يمت بالسبب مات بالأجل»[2]، ولعل الأعلم الشنتمري كان أقرب إلى فهم الملازمة في الأعراض للمنايا، فأسباب المنايا عنده تعني «علقها وما يتشبث بالإنسان منها»[3] والعلق هي المنايا عينها كما جاء في شرح القاموس.

ولا تعني تخطئة زهير وطرفة في رؤيتهما الفكرية لوقوع الموت إغلاق باب التأول في التماس معنى المعنى مما له وجه من صواب، وقدر من توجيه، فتصوير زهير للموت بالناقة العشواء «إنما يريد أنها لا تترك الشباب لشبابه، ولا تقصد الكبير لكبره، وإنما تأتي بأجل معلوم»[4] وانتقائية الموت التي يقررها طرفة في قوله: (أرى الموت يعتام الكرام . . .) «إنما جعل الموت يختار كرام الناس ويصطفي خيار المال، وإن كان لا يخفى شيئاً من شيء في الحقيقة، لأن فقد الكرماء وخيار المال أشهر وأعرف من غيره، فكأنه بشهرته لم يكن غيره، ولا حدث شيء سواه»[5]

وعلى ذلك فلم يكن القصد مما سبق تحليله الإسقاط والإعابة، وإنما كان الدافع إليه الانتهاء إلى القول إن تصوراً شعرياً أوضح من تصور، وفهماً أعمق من فهم،

---

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري مجلد ١١/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الأعلم الشنتمري: شعر زهير ص ٢٧.

(٤) الأعلم الشنتمري: شعر زهير ص ٢٧.

(٥) الأعلم الشنتمري: ديوان طرفة بن العبد ص ٣٧.

ورؤية أصدق من أخرى، وحكمة أصوب من غيرها وأدق، وإن كان مجال القول واحداً محدداً، ما دامت الرؤية الجاهلية تفتقد المنهج الذي يمنحها الثبات والديمومة، والاطراد في الإصابة والصواب.

وإذا كان الأمر كذلك فلا بأس أن تقوم الرواية في هذا الموروث الشعري (شعر الحكمة) على الانتخاب مما صادق الحق، ووافق الشرع، وأن يتناسب المروي من شعر شاعر في عدده ونسبته مع ما عرف من اتجاه صاحبه خلقاً وتديناً وصدقاً.

فقد استنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم من شعر أمية بن أبي الصلت مائة بيت أو مائة قافية، إذ كان أمية قد غلب على شعره ذكر الآخرة كما يقول الأصمعي، ويحكي قصص الأنبياء فيه[1]، «ويذكر في شعره خلق السموات والأرض ويذكر الملائكة، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء، وكان قد شام أهل الكتاب»[2]. ففي حديث إبراهيم بن ميسرة عن الشريد بن عمرو عن أبيه قال: «ردفت رسول الله صلى الله عله وسلم يوماً فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قالت: نعم. قال: هيه! فأنشدته بيتاً، فقال: هيه! فأنشدته بيتاً، فقال هيه! حتى أنشدته مائة بيت» وزاد في حديث عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي «قال: إن كاد ليسلم» وزاد في حديث ابن مهدي: «فلقد كاد يسلم في شعره»[3].

قال القرطبي: «وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً، وإنما استكثر النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية لأنه كان حكيماً، ألا ترى قوله عليه السلام وكاد أمية أن يسلم، فأما ما تضمن ذكر الله والثناء عليه فذلك مندوب إليه»[4].

---

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص ١٥٣ طـ ليدن.

(٢) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ١/٢٦٢-٢٦٣.

(٣) رواه مسلم: صحيح مسلم جـ ١١/١٥.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٤٥-١٤٦.

واجتهد أبو الفرج الأصفهاني في التماس أمثلة شعرية من قصائد أمية بن أبي الصلت التي أنشدت للرسول صلى الله عليه وسلم، فأخرج من غير طريق الحديث الصحيح السابق خبراً[1] مفاده أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب من عكرمة بن عباس أن ينشده شعراً لأمية بن أبي الصلت، فأنشده قوله:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبَّحنا ربي ومسَّانا
رب الحنيفة لم تَنْفَذ خزائنها ... مملوءة طبّق الآفاق سلطانا
الا نبيٌّ منا فيخبرُنا ... ما بعد غايتنا من رأس محيانا
بينا يربِّبنا آباؤنا هلكوا ... وبينما نقتني الأولاد أفنانا
وقد علمنا لو أنَّ العلم يَنْفَعنا ... أن سوف يلحق أخرانا بأولانا
وقد عجبتَ وما بالموت من عجب ... ما بال أحيائنا يبكون موتانا!

وكذلك أخرج ابن عبد ربه عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: «أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم أبياتاً لأمية بن أبي الصلت يذكر فيها حملة العرش:

زحل وثور تحت رجل يمينه ... والنسر للأخرى وليث يرصد
والشمس تطلع كل آخر ليلة ... فجراً ويصبح لونها يتوقد
تبدو فما تبدو لهم في وقتها ... إلّا معذبة والا تجلد

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم كالمصدق له»[2].

وترك موقف الرسول صلى الله عليه وسلم الراضي عما سمع من شعر أمية بن أبي الصلت أثراً واضحاً في روايته وتداوله واستكناه معانيه، إذ جاء في محاورة أبي بكر الهذلي لعكرمة قال: قلت لعكرمة: ما رأيت من يُبَلِّغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن أمية: «آمن شعره وكفر قلبه» فقال: هو حق، وما الذي أنكرتم من ذلك؟ فقلت له: أنكرنا قوله:

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٣/١٨٣.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٦/ ١١٠.

والشَّمسُ تطلع كلَّ آخر ليلةٍ حمراء مطلع لونها مُتورِّدُ
تأبى فلا تبدو لنا في رسلها إلا معذبة والا تجلد

فما شأن الشمس تجلد؟ قال: والذي نفسي بيده ما طلعت قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقولون لها: اطلعي، فتقول: أأطلع على قوم يعبدونني من دون الله! قال: فيأتيها شيطان حين تستقبل الضياء يريد أن يصدها عن الطلوع فتطلع على قرنيه فيحرقه الله تحتها، وما غربت قط الا خرّت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن السجود، فتغرب على قرنيه فيحرقه الله تحتها، وذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «تطلع بين قرني شيطان وتغرب بين قرني شيطان»[1].

وتمثل ابن عباس كذلك بشعر أمية بن أبي الصلت في مجلس معاوية بن أبي سفيان وقد جرى بينه وبين عمرو بن العاص حوار، فأنشد ابن عباس الأبيات السابقة[2].

وليست الحكمة قصراً على المتحنفين، ولا إصابة صدق المعنى حكراً على من تلقف شيئاً من الدين، بل إن الفطرة التي فطر الله الناس عليها إذا صفت في الإنسان، أياً كان زمانه ومتجه فكره وعقله، تألقت بحقائق كونية وإنسانية صحيحة، لا يملك المسلم إلا الموافقة لها، والتسليم بها، والتأمين عليها، قراراً باستقامتها. من ذلك ما أخرجه أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي بسنده عن مسلم بن الحارث الخزاعي ثم المصطلقي قال: حدثني أبي عن أبيه قال: «كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنشد ينشده هذا الشعر (قول سويد بن عامر المصطلقي):

لا تأْمَنَنَّ وإن أمسيت في حَرَمٍ إن المنايا بكفيّ كل إنسان
واسلك طريقك تمشي غير مُخْتَشِعٍ حتى تَبيَّنَ ما يَمْني لك الماني
فَكُلُّ ذي صاحبٍ يوماً يفارقه وكل زادٍ وإن أبقيته فان
والخيرُ والشرُّ مقرونانِ في قَرَنٍ بكل ذلك يأتيك الجديدانِ

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٤/ ١٣٠-١٣١. (٢) المصدر نفسه ٤/ ١٣١.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أدرك هذا الإسلام» فبكى أبي، فقلت: أتبكي لمشرك مات في الجاهلية! قال أبي: والله ما رأيت مشركة تلقّف من مشرك خيراً من سويد»[1].

ومعاني الأبيات دالة على الفطرة ذات الحس البصير والقلب اليقظ، فلا أمن أو أمان في الدنيا يركن إليه الإنسان مهما تكن منعتــه ،ما دامت المنية قريبة بين يديه، ولما كانت الأمور مقدرة بما يقدّر الله القادر (يمني لك الماني) فعلى المرء أن يسلك طريقه بعزة دون ذل أو خوف، وكل نعمة أو متعة نفسية أو حسيّة فالزوال والفناء مصيرها، أما الخير والشر فمجموعان لا يفترقان «من حيث لا يكاد يصيب الإنسان في الدنيا خير صرف، إلاّ شر فيه، ويجوز أيضاً أن يريد أن لسرعة تقلب الدنيا وإبدالها الخير بالشر، كان الخير والشر مقرونان مجموعان معاً، لتقارب ما بينهما»[2].

ومنحت مواقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من رواية الشعر تأكيداً وترسيخاً لإيجابية هذا الاتجاه الإسلامي الراغب في الحكمة، الباحث عما وافق الحق، المعجب بما يُرْوَى من شعر قوامه الصدق، ومعيار سيرورته وتداوله الإصابة والصواب، إذ كان يتوقف عند هذا اللون من الشعر مميزاً له، موضحاً لأبعاده الجمالية في الشرف؛ الخلقية والفنيّة، فقد أنشدوه قصيدة أبي قيس بن الأسلت[3] التي على العين وهو ساكت، فلما انتهى المنشد إلى قوله:

---

(١) أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي: غريب الحديث ١/٣٠٦ والشريف المرتضي: أمالي المرتضي ١/٣٦٨.

قال الهيثمي: رواه الطبراني والبزار عن يعقوب بن محمد الزهري عن شيخ مجهول هو مردود بلا خلاف (مجمع الزوائد ٨/١٢٦).

(٢) الشريف المرتضي: أمالي المرتضي ١/٣٧٠.

(٣) من شعراء الأوس في المدينة، وهو شاعر مجيد، «ذكروا أنه أقبل يريد النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عبد الله بن أبيّ: خفت والله سيوف الخزرج، قال لا جرم، والله لا أسلم حولاً، فمات في الحول». (ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٢٦-٢٢٧).

الـكـيس والـقـوة خير من الإ شفـاق والـفـهـة والـهـاع[1]

أعاد عمر البيت وقال:

الـكـيس والـقـوة خير من الإ شفـاق والـفـهـة والـهـاع

وجعل عمر يردد البيت ويتعجب منه.[2]

وإنما تعجب عمر من هذا المعنى لإصابة أبي قيس بن الأسلت حقيقة الإنسان المتميز بالتقديم لأنه متعادل الأبعاد في شخصيته، فهو يجمع إلى القوة (القدرة الجسمية) الذكاء والفطنة (القدرة العقلية) فهو فاضل بذلك لمن يتأرجح بين الخوف والعي والحرص، أو من يتردد بين الادهان والضعف وشدة الحرص في اتخاذ قراره، فثمة فرق بين الشخصيتين وما يصدر عنهما، إذ يعمل الذكاء في الشخصية الأولى ظهيراً للقوة في الإعداد والتنفيذ، فيكون التكامل موسوماً بالدقة والجمال، في حين يظل ضعف الهمة صفة تحد من قيمة الغاية التي قد يصيبها صاحب الشخصيّة الثانية، وكأني بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ينظر إلى المؤمن القوي في الشخصية الأولى والمؤمن الضعيف في الشخصية الثانية.

وأنشدوه قصيدة عبدة بن الطبيب الطويلة التي على اللام، فلما بلغ المنشد قوله:

والـمـرءُ ساعٍ لشـيء ليس يُدْرِكُـهُ والـعـيشُ شُحٌّ وإشـفـاق وتـأميل

قال عمر متعجباً: العيش شح وإشفاق وتأميل، يُعَجِّبهم من حسن ما قسّم وفصل[3].

إذ أدرك عبدة بن الطبيب العلاقة غير المتوافقة بين سعي الإنسان المنظور والأمل المغيب، الذي يتقلب المرء في محاولة تحقيقه في أنماط متباينة المستوى؛ من ضيق

(١) الفهة: العي والجهل، والهاع: شدة الحرص.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٢٤١.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٢٤١.

العيش، وخوف الفقر، ورجاء الغنى. ويلتقي هذا التصور في مفهومه العام مع المنهج الإسلامي في السعي، إذ أن حركة الإنسان المسلم يسعى لتحقيق آماله ورزقه ليس من شأنها تغيير المقدر المغيب، فقد يجتهد المرء في سعيه ولا سعة في الرزق يصيبها، وقد يكون العكس تماماً، لكن الأجر من الله يتناسب والجهد أو المشقة، أصاب الغاية أو لم يصب، فلعل عمر بن الخطاب تعجب من هذا الفهم الموافق لفهم الإسلام، فضلاً عن حسن الإيقاع والتقسيم المتنامي وشموله.

ويحظى مثل هذا المعنى الصائب الفهم بنصيب كبير من الرضى والقبول إذا زُفَّ بأثواب جمالية في التعبير، فقد أُنشد عمر بن الخطاب شعراً لزهير بن أبي سلمى، وكان لشعره مقدماً، فلما انتهوا إلى قوله:

فإن الحق مقطعة ثلاث   أداء أو نفار أو جلاء

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها وإقامته أقسامها، وأخذ يردده من التعجب[1]. وسمي زهير بهذا البيت قاضي الشعراء لأنه أبان عن وسائل تحقيقه ورعايته «فلا يقطع الحق إلا الأداء (اليمين) أو النفار ـ الحكومة ـ أو الجلاء وهو العذر الواضح، ويروى يمين أو نفار، وهذه الثلاث على الحقيقة هي مقاطع الحق كما قال، على أنه جاهلي وقد وكدها الإسلام»[2] فالحقوق إنما تصح بواحدة من هذه الثلاث.

ويتخذ موقف عمر بن الخطاب الإيجابي من رواية الشعر نهجاً آخر يتجاوز التوقف الناقد لقيمة الشعر المنشد إلى الإعلان عن مجموع أبيات المعاني الشريفة التي بها يستحق الشاعر التقديم على نظرائه من قومه أو على غيره من الشعراء، إذ يروى أنه سأل أي شعرائكم الذي يقول:

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٤١.

(٢) ابن رشق القيرواني: العمدة ١/٥٥ ـ ٥٦ وابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١/١٤٩.

ولست بمستبق أخاً لا تلمه إلى شعث أي الرجال المهذب؟

قالوا النابغة: قال: هو أشعرهم(١).

وزاد أبو الفرج في روايته أنه قال لوفد غطفان فأيكم الذي يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينةٍ تمد بها أيدٍ إليك نوازع

قالوا: النابغة، قال: فأيكم الذي يقول:

إلى ابن مُحَرِّق أعملت نفسي وراحلتي وقد هَدَتِ العيون
أتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوفٍ تُظَنُّ بي الظنون
فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوحٌ لا يخون

قالوا: النابغة، قال: هذا أشعر شعرائكم(٢).

وكان ابن سلام قد شك في سماع عمر للبيت الأخير «فألفيت الأمانة...» فقال: «وهذا غلط على الشعبي أو من الشعبي أو من ابن حراش. أجمع أهل العلم أن النابغة لم يقل هذا، ولم يسمعه عمر، ولكنهم غلطوا بغيره من شعر النابغة، فإنه ذكر لي أن عمر بن الخطاب سأل عن بيت النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وحري أن يكون هذا البيت، أو البيت الأول»(٣) (ولست بمستبق...).

ولأي من هذه المرويات كان تقديم عمر بن الخطاب للنابغة وتفضيله له على غيره من الشعراء، فإن مقياس تقديمه منسجم وما تقدم من القول؛ إن رواية الشعر الجاهلي

---

(١) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ١/٥٦.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١١/ ٢٢-٢٣.

(٣) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ١/٦٠ وانظر ابن قتيبة ص٧١ ط ليدن.

على جهة الالتزام لا تبرح الحكمة الصائبة والمعنى الخلقي الصادق، فقد بصر عمر اعتماد النابغة اليمين في قطع الشك، إذ ليس بعد الله شيء؛ لواذاً بالتصديق، وذهابه إلى أن الكمال المطلق في سلوك الرجال لا وجود له، ولذلك لا غضاضة في الاغضاء عن بعض التصرف حفاظاً على الصداقة والأخوة، وتصويره الصائب المقارب في المشابهة القائم على جودة المفارقة بين قدرة إحاطة النعمان في طلبه، وإحباط حيلته في الهرب، فأي منجاة تجدي مع إحاطة الليل، وتعاقبه في ديمومة، وتعقبه في شمول؟!

فهذه الأبيات الأفراد شريفة البعدين؛ الخلقي والفني، ولعله لذلك كان تأكيد ابن سلام لرضى عمر عنها بقوله: «وحري أن يكون هذا البيت (حلفت فلم أترك. . .) أو البيت الأول (ولست بمستبق. . .)»، وإن كان النزوع الموضوعي في هذين البيتين المشار إليهما أبين من النزوع الفني، فإن الفن يظل مكنوناً في الحكمة القائمة على التركيز واللمح والدقة.

وهكذا حملت المواقف السابقة مواقف إيجابية من رواية الشعر الجاهلي ذي القيم الفكرية والخلقية، وقد ارتكزت هذه المواقف على بعض الأسس في إظهار القيم الشعرية الموضوعية والفنية، مثل استنشاد الشعر، ولفت النظر إلى جمال صدقه، والتعجب من دقة المعنى في إصابة الحق، والترديد المحدد للجوانب الجمالية في تركيز المعنى، وفنيّة تقسيمه وترتيبه.

والتوقف بالشعر المروي عند أفراد الأبيات بالأسس المشار إليها، لا يعني خرم منهج القصيدة المروية، بل يحدد أسلوباً نقدياً في التعامل مع الشعر المروي، ذلك أن إعجاباً تأثرياً طاغياً خرج بالسامع عن حدود الإباحة في مجمل معاني القصيدة، التي كان الصمت حيالها دليلاً على القبول والرضى، إلى التعجب بالإشارة والترديد الذي هو معيار في التأثر والتأثير.

وعلى هذا الأمر جرى مذهب النقاد الأوائل في تعيين أفراد الأبيات المميزة في

القصيدة معنى ومبنى، والتنويه بها ورفع شأن صاحبها وتقديمه على غيره من الشعراء، فابن سلام يقول عن الأعشى: «وكان أول من سأل بشعره، ولم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه»[1] ويقول عن الفرزدق: «وكان الفرزدق أكثرهم بيتاً مقلداً، والمقلد: البيت المستغني بنفسه، المشهور الذي يضرب به المثل»[2] وَعَدَّ المبرد ذلك معياراً لما اختاره من أبيات فيقول مقدماً لها: «ومما يستحسن من الشعر لصحةً معناه، وجزالة لفظه، وكثرة تردد ضربه من المعاني بين الناس...»[3].

وإذا كان الموقف الإيجابي السابق من رواية الشعر الجاهلي يدور في إطار الذاتية التأثرية، فثمة موقف إيجابي آخر منح القيم الفكرية والخلقية في هذا الموروث الشعري أحكاماً نقدية موضوعية مميزة للشاعر، ومفضلة لرواية شعره، ومعززة في الإقبال عليه. من ذلك ما روي من تعقيب عمر بن الخطاب رضي الله عنه على شعر زهير بن أبي سلمى، قال ابن سلام: «أخبرني عيسى بن يزيد بن دأب بإسناد له عن ابن عباس قال، قال لي عمر: أنشدني لأشعر شعرائكم، قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير. قلت: وكان كذلك! قال: كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع وحشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه»[4].

وأخرج أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب بإسناده عن ابن عباس، المروية النقدية ذاتها في عموم دلالتها على شعر زهير، إلاّ أنه زاد أن عمر بن الخطاب قال: أليس الذي يقول:

إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية ... من المجد من يسبق إليها يُسَوَّدِ
سبقتَ إليها كل طلق مُبَرِّز ... سبوق إلى الغايات غير مُزَنَّدِ

---

(١) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ١/٦٠.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٣٦٠-٣٦١.

(٣) المبرد: الكامل ١/٤٤.

(٤) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٦٣ وانظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص ٦١.

كفعـل جواد يسبق الخيل عَفـوُهُ الـ سَّـراعَ وإن يجـهـد ويجهـدْنَ يَبْعُـدِ
ولـو كان حمـدٌ يُخْلدُ النـاسَ لم تَمُتْ ولـكـنَّ حَمْـدَ النـاسِ ليس بمُخْلِدِ

أنشدني له، فأنشدته حتى برق الفجر، فقال حسبك الآن، اقرأ القرآن، قلت وما أقرأ، قال: اقرأ الواقعة، فقرأتها، ونزل فأذن وصلى»[1].

وتجدر الإشارة إلى أن عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب كان من الكذابين يضع الشعر وأحاديث السمر وكلاماً ينسبه إلى العرب، فسقط علمه وخفيت روايته[2]. وإذا كان ابن سلام يكتب حديثه في الشعر خاصة، فإن أبا الفرج الأصفهاني لا يوثق بروايته، لأنه كان يقص ألواناً من القصص المصنوعة لمقاصد عدّة[3]؛ ولذلك تزيّد في الخبر بما يجعله مجالاً للشك، حيث وجد مسوغاً مغرياً في إقبال عمر على شعر زهير وإعجابه به، فمدّ طلق الإنشاد حتى برق الفجر، والحال أنه في أول غزوة غزاها، قصداً للترويح والاستمتاع بالشعر، ولا يشفع لهذه الزيادة أو يسوغها هذه المعادلة التي ذيل بها الخبر، من أن ذلك لم يشغل عمر وابن عباس عن حق الله، من قراءة القرآن وإقامة الصلاة.

على أن عمر بن الخطاب ضرب فيما صح من هذا الموقف، مثال التوازن النقدي بين إحساسه بالجمال الفني القائم على الوضوح بالبعد عن غريب اللفظ ووحشيّه، والبساطة المجافية للتعقيد، بمداخلة الكلام وموالاته، وتراكب بعضه فوق بعض، وبين الخطة الإسلامية في قبول الشعر وروايته على أساس من مباينة الغلو والإفراط والالتزام بالصدق الخلقي والواقعي. وفي شعر زهير ما يعزز هذا التوازن، حيث كان «يتأله في شعره ويتعفف، ويدل شعره على إيمانه بالبعث. . . »[4].

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني ١٠/ ٢٩٠-٢٩١.

(٢) ابن حجر: لسان الميزان ٤/ ٢٠٨.

(٣) انظر وليد الأعظمي: السيف اليماني في نحر الأصفهاني ٢٠-٢٤.

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص ٥٨.

وكأني بابن سلام الجمحي يؤكد سلامة توجه عمر وتوازنه النقدي، فيشفع موقفه من زهير بما يعزز قوامته ويدل على أثره، فيروي خبراً عن قدامة بن موسى، وكان من علماء أهل المدينة، ومن ثقات الرواة (ت ١٥٣هـ): أنه كان يقدم زهيراً، وقد سئل أي شعره كان أعجب إليه؟ قال التي يقول فيها[١]:

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلونَ إلى أبوابه طُرُقا
من يَلْقَ يوماً على عِلاّتِه هَرِماً يَلْقَ السَّماحةَ منه والنَّدى خُلُقا

ويروي ابن سلام أيضاً حكم أهل النظرفي شعر زهير وهو قولهم: «كان زهير أحصفهم شعراً، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق، وأشدهم مبالغة في المدح[٢]، وأكثرهم أمثالاً في شعره»[٣].

وفي الاتجاه ذاته جرى تداول جانب من الشعر وروايته في مجالس عبد الملك ابن مروان وقوفاً على الأبيات الشريفة المعاني من الحكم، فقد قال لبعض جلسائه يوماً: ما أحكم أربعة أبيات قالتها العرب في الجاهلية؟ فأنشده:

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسي
وطلوعها بيضاء صافية وغروبها صفراء كالورس
تجري على كبد السماء كما يجري حمام الموت في النفس
اليوم تعلم ما يجيء به ومضى بفصل قضائه أمس

قال: أحسنت»[٤].

---

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/ ٦٣-٦٤.

(٢) قال محمود شاكر: قوله «وأشدهم مبالغة في المدح» لم يذهب ابن سلام إلى المبالغة الذميمة، بل أراد الاجتهاد في تصحيح معنى المدح وتوفيته حقه» (حاشية طبقات فحول الشعراء ١/ ٦٤).

(٣) ابن سلام: ١/ ٦٤.

(٤) الحصري: زهر الآداب ٢/ ٧٦٦.

بهـذه الحقائق الإنسانية والكونية الصائبة التي تنم عن دقة وحسن فهم تألقت الفـطرة الجـاهلية في الشعر، فجاد موقعها من نفوس الصحابة والتابعين، وحسنت روايتها، بانضباط متوازن بين الإحساس بالجمال الفني والخطة الإسلامية في رواية الشعر والتعطف عليه بالقبول.

٢ـ شعر القيم الخلقية والفكرية والفنية

فرضت بعض المناسبات العارضة، والأحداث الواقعة في الحياة الإسلامية، تداعياً لأحداث مشابهة في الجاهلية، ومواقف شعرية ذات قيم خلقية وفكرية، مدحاً ورثاءً وقصاً ووعظاً وحماسة.

وبعض هذه القيم الجاهلية، قيم الحق والخير، وجدت السبيل لها ممهداً في الإسـلام؛ لصـلاتهـا الحميمـة بالفطرة النقية التي لا يضادها الإسلام، إذ أنه دين الفطرة، فأقر العفاف والحياء ورعاية الجار والأمانة والصبر والحلم والقناعة والتواضع والهمة والوفاء والعدل، وما إلى ذلك من مكارم الأخلاق التي بها تمام الإنسان وكماله في الأخذ بالفضائل في جميع أحواله، والعدول عن طرق الرذائل في كل أفعاله. فقد روى الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده أن سفَّانة بنت حاتم الطائي قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد! إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العـرب فإني ابنـة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، وأنا ابنة حاتم طيء. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا جارية! هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق»[1].

وينبغي أن يفهم من ذلـك أن الإسـلام جاء تطوراً طبيعياً للجـاهلية ولم يأت استطراداً للنمط الفكري والسلوك الحياتي فيها؛ لأنه ألغى إلغاء تاماً أو شبه تام منهجها

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/٢١٣.

الفكري والمعيشي، إلّا بعض الملامح التي تمليها فطرة الخلق التي فطر الله الناس عليها، على أن من هذه الملامح ما وجد قبولاً في عموم المفهوم الإسلامي لها دون خصوص القصد والتعلق، فالشجاعة هذه الفضيلة الكبرى التي تندرج تحتها كل الفضائل، جعلها الجاهليون حمية وعصبية ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حميّة الجاهلية﴾[1] وكذلك الكرم والبذل إنما كانوا ﴿ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾[2] فأدركوا ما طلبوه في الدنيا من ذكر واشتهار أمر.

وعلى ذلك لم يكن غريباً أن تصبح رواية شعر هذه القيم منظورة من جهتين:

الأولى: القبول بالمفهوم الإسلامي العام لها.
والثانية: التعديل بتغيير جهة تعلقها.

وأكسبت الرواية الإسلامية شعر هذه القيم والمواقف نباهة ذكر ورفعة شأن وسيرورة تداول، إذ تعطفت عليه بالقبول، أو خلعت عليه تعديلاً في التوجه، وعلى الرغم من عنصر المصادفة أو الارتجال في انتخاب النموذج، فإن حركة الرواية في هذا المجال تكتسب بعداً نقدياً ذا قيمة في اعتماد شرف المعنى معياراً يرتكز عليه توجه الانتخاب في القبول أو تعديل المتعلق.

ومسوغات رواية شعر هذه المجال من الشعر الجاهلي منوعة، ومع ذلك يمكن حصرها في المدح والتأساة والتعزي والقص والوعظ والاستطراف الفني، وهي لا تخلو من تداخل في بعض النماذج.

أ) المدح:

منح المسلمون من الصحابة بعض معاني المدح التي أصابها الشعراء أصالة باسترجاع إنشادها، وشرفاً بتعديل جهة تعلقها، حيث أحسوا مبالغة أو إفراطاً في

---

(١) سورة الفتح: آية ٢٦.
(٢) سورة النساء: آية ٣٨.

خلعها على النماذج البشرية الجاهلية، فصرفوها إلى النموذج المطابق لها، فقد صرف المسلمون بعض المدائح الجاهلية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه نموذج الكمال المطابق، وهو توجيه نقدي للمثال في المدح الذي كان يسعى إليه الجاهليون تطلعاً وتعلقاً دون حقيقة في الواقع إلى صدق المثال وحقيقة وجوده وتطابقه.

روي أن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، وكنت جالسة أغزل، فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق، وجعل عرقه يتولد نوراً، قالت: فبهت، فنظر إليَّ فقال: مالك بهت! فقلت: يا رسول الله: نظرت إليك فجعل جبينك يعرق، وجعل عرقك يتولد نوراً، ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، قال: وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي: قلت هذين البيتين:

ومبرءٍ من كُلِّ غُبَّر حَيْضَةٍ ... وفسادِ مُرْضعةٍ وداءٍ مُغيْلِ
وإذا نظرت إلى أسرّةِ وجهه ... بَرَقت كبرق العارض المتهلل

قالت: فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده، وقام إليّ وقبل ما بين عيني وقال: جزاك الله خيراً يا عائشة، ما سررت مني كسروري منك»[1].

وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قول زهير في هرم بن سنان يمدحه:

دع ذا وعدِّ القول في هَرِمٍ ... خير الكهول وسَيِّدِ الحَضَرِ
لو كنت من شيء سوى بشر ... كنت المنورَ ليلةَ البدر
ولأنت أوصل من سمعتُ به ... لشوابك الأرحام والصِّهْر
ولنعم حشوُ الدِّرع أنت إذا ... دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ في الذُّعر
وأراك تفري ما خلقتَ وبعـ ... ض القوم يَخلُق ثم لا يفري
أثني عليك بما علمت وما ... أسلفتَ في النَّجداتِ من ذِكرِ
والسِّتْرُ دون الفاحشات ولا ... يلقاك دون الخير من سِتْرِ

(١) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١٢٧/٣ ورواه البيهقي في دلائل النبوة، وابن قيم الجوزية: روضة المحبين ص ٢٣٢.

فقال عمر: ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

فإذا كانت عائشة رضي الله عنها قد ساقت حكمها بعد هذا الإنشاد على سبيل التمني (لو رآك أبو كبير الهذلي) لمطابقة الوصف للموصوف باطناً وظاهراً، في نقاء تكوين الرسول صلى الله عليه وسلم وطهره، وإشراق وجهه وطلاقته وجماله، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقطع بأن الصورة التشخيصية التكاملية في الأبعاد النفسيّة والجسمية والخلقية التي وردت في شعر زهير، إنما هي صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاصة أن المدح فيها يحمل نهاية الوصف المتميز بالتفضيل (خير الكهول وسيد الحضر) (أوصل لشوابك الأرحام والصهر)، وبالثناء المختص بالمدح (كنت المنور ليلة البدر) (ولنعم حشو الدرع أنت. . .)، وبالتفرد الذي يقصر عنه الآخرون (وأراك تفري ما خلقت. . .).

ولم تكن مبالغة الشاعرين وصفاً ومدحاً سبب تغيير جهة التوجه الشعري عند كل من عائشة وعمر رضي الله عنهما؛ لأن المبالغة من صنعة الشعر، تقوم عليها بنية أغراضه المتعددة في التصور والخيال والانفعال، والحدّ الفيصل بين القبول فيها والرفض هو وجود جذر تتنامى منه الصفة وتمتد، فيكون الوصف صادقاً بهذا الأساس، أو يتبرأ الوصف من الموصوف لأنه مفتقد لهذا الأصل. يقول الغزالي: «وللتوسع في المدح فإنه وإن كان كاذباً فإنه لا يلحق في التحريم كقول الشاعر:

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء، فإن لم يكن صاحبه سخياً كان كاذباً، وإن كان سخياً فالمبالغة من صنعة الشعر، فلا يقصد منه أن يعتقد صورته»(٢).

غير أن الإحساس بتباين طرفي الصورة المدحية (الرؤية والواقع، أو الوصف والموصوف) هو الباعث على تغيير جهة التعلق والتوجه، فالوصف الذي بلغ النهاية،

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٠/٣٠٤.

(٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/١٢٦.

فأضحى المثال (الرؤية) في النصين السابقين، لا يأتلف في أبعاده مع الممدوحين (الواقع)؛ لأنه فقير إلى الصدق بالمفهوم الإسلامي، ولكنه متطابق صائب إذا صرف إلى نموذج الكمال وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبهذا التصور النقدي لمرويات المدح الشعرية جاء توجيه عمر أيضاً لما سمعه من شعر زهير في مدح هرم، فعن عبد الله بن عباس قال: «قال لي عمر بن الخطاب: أنشدني قول زهير فأنشدته قوله في هرم بن سنان بن حارثة يقول:

قوم أبوهم سنان حيث تنسبهم ... طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا ... مرزءون بهاليل إذا احتشدوا
محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ما له حسد

فقال عمر: ما كان لي لو كان هذا الشعر في أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

وأصرح من ذلك وأوضح في الاحتكام إلى الصدق معياراً في تغيير متعلق الشعر المروي وتوجيه قيمه المعنوية، ما أخرجه الجاحظ وأبو الفرج الأصفهاني عن هشام بن عروة أن عمر بن الخطاب أنشد قول الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نار عندها خير موقد

«فقال عمر: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم»[2] وفي رواية أبي الفرج: «قال عمر كذب، بل تلك نار موسى نبي الله صلى الله عليه وسلم»[3].

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٨/ ٢٩١.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ٢٩ وانظر الحصري: زهر الآداب ٢/ ٩٠٧.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢/ ٢٠٠.

وسواء أكان المصروف إليه في هذا المدح محمداً صلى الله عليه وسلم أو موسى الذي زكاه الله بقوله: ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾[1] فإنهما والأنبياء عليهم الصلاة والسلام اختارهم الله نموذجاً للكمال، وشرّفهم بأكمل الأوصاف وجعلهم أئمة الدنيا والدين، فهم خيرة الخلق وصفوة البشر.

ويؤكد الجاحظ سلامة هذا الحس الأدبي وقوامة حكمه النقدي فيقول: «وما كان ينبغي أن يمدح بهذا البيت إلّا من هو خير أهل الأرض، على أني لم أعجب بمعناه أكثر من عجبي بلفظه وطبعه ونحته وسبكه»[2].

ولا يقتصر تغيير متعلق الشعر المروي على المدح غرضاً في إضفاء صفة النموذج على الإنسان، بل إن الرثاء والفخر ينزعان إلى هذه النموذجية أيضاً، ولذلك كان الموقف من إنشادهما وروايتهما هو الموقف ذاته من رواية المدح، فقد أنشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه قول لبيد في أخيه أربد:

لعمري لئن كان المخبر صادقاً ... لقد رزئت في حادث الدهر جعفر
أخ لي أما كل شيء سألته ... فيعطي وأما كل ذنب فيغفر

«فقال أبو بكر رضوان الله عليه: ذلك رسول الله لا أربد بن قيس»[3].

وفي أبيات حارثة بن بدر الغُدَانيّ التي يفخر فيها:

لنا نبعة كانت تقينا فروعها ... وقد بَلَغَتْ إلّا قليلاً عروقها
وإنا لتستحلي المنايا نفوسنا ... ونترك أخرى مرّة لا تذوقها
وشيب رأسي قبل حين مشيبه ... رعود المنايا بيننا وبروقها

(١) سورة النمل: آية ٨.
(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ١٦٥.
(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٧/٦٣.

«روى أبو العيثا قال: أنشد الشعبي عبد الله بن جعفر الأبيات الثلاثة فقال عبد الله: لمن هذا يا شعبي؟ فقال: لحارثة بن بدر[1]، فقال: نحن أحق بهذا»[2].

وإذا كنا لا نعلم زمن هذين النصين أفي الجاهلية قيلا أم في الإسلام، فإن فيهما مؤشراً على سيادة الموقف الإيجابي في رواية الشعر بتغيير متعلقه وتوجيهه وجهة الحق، لدى الإحساس بأن تصوير الإنسان الممدوح أو المرثي بصورة النموذج أو المثال خارج في صفاته عن الصدق وحدوده، إذ لا يرى التصور الإسلامي في الإنسان كمالاً مطلقاً، إلّا لمن كان نبياً أو تقياً نقياً من أحباء الله وأصفيائه.

ب) التأساة والتعزية:

ناب بعض الشعر الجاهلي في التعبير عن حال عرض للصحابة رضي الله عنهم فاستأنسوا به في تنفيس العارض من أمور الدنيا تسرية وتأساة، وظاهر هذا المسوغ أنه مختص بشعر المراثي دون غيره، إلّا أن شعراً في الحماسة والمدح والفخر كان له حضور في ذلك، فمن التعزي بالشعر عند الموت ما تمثل به علي بن أبي طالب حينما رأى طلحة بن عبيد الله في القتلى يوم الجمل[3]:

فتى كان يُدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هوا ستغنى ويبعده الفقرُ
فتى لا يَعُدُّ المال ربّاً ولا ترى ... به جفوة إن نال مالاً ولا كِبْرُ
فتى كان يعطي السيف في الروع حقه ... إذا ثوّب الداعي وتشقى به الجُزْرُ

---

(١) الحارثة بن بدر الغداني: شاعر مخضرم أدرك الإسلام فأسلم، وكان رجل تميم في وقته، توفي سنة ٦٤هـ.

(٢) الشريف المرتضي: أمالي المرتضي ١/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٣) طلحة بن عبيد الله التيمي أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى، رمي يوم الجمل بسهم في ركبته فما زال الدم يسيح حتى مات وذلك سنة ٣٦هـ (الإصابة ٣/ ٢٩٠).

وهــون وجــدي أنـني سوف أغتــدي　　على أثــره يومــاً وإن نَفَّسِ الـعُمــرُ[1]

إذ الأبيات تعـديد لمناقب الميت وتـأبين لصفـاته النفسية والخُلقيّة في الغنى والفقر، والسلم والحرب، وهي بريئة من فضول القول أو المبالغة أو التردي في أوزار الكذب، وقد وجد علي بن أبي طالب ضالته فيها، تمثيلاً للمتوفى، وعزاءً لنفسه، خاصة في هذا الصدق الذي يدعو إلى التصبر والاتعاظ فيما شمله البيت الأخير.

وكـذلـك كانت أبيات المُعَقِّـر بن أوس البـارقي في وصف رحلة ناقته الطويلة الشاقة، تأساة لعائشة رضي الله عنها في موت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يقول المُعَقِّر:

فجئـنــا إلــى جمــع كأن زهـــاءه　　جراد هفــا من هبــوة متــطاير
تهـيبــك الأسـفــار من خشية الــرَّدى　　وكــم قد رأينــا من رد لا يســافـر
وخــبـرهــا الــوراد أن ليس بينـهــا　　وبــين قرى نجـران الــدرب كافـر
فألْقَتْ عَصَـاهــا واستَقَرَّ بها النـوى　　كمــا قرَّ عينــاً بالإياب الــمســافـر

قال المـرزبـاني: «أنشـدت هذا البيت عائشـة رضي الله عنها لما بلغها موت علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[2].

لقد قَرَّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالموت عيناً، ونال الراحة والرضى بذلك، بعد طول جهد وتطواف ومعاناة، شأنه في ذلك شأن المسافر وما يلقاه في إيابه من سعادة بعد ترحال وطول تجوال.

وكان المعقر بن أوس البارقي قد عاش بناقته رحلة تقلب الأحوال بين أمل الوصول وقسـوة معوقات الظفر به، حين ظل الموت بما فيه من رهبة حائلاً، وكان بعد مآل

---

(١) نسبت الأبيات للأبيرد الرياحي، ونسبت في الإصابة لسلمة بن يزيد الجعفي أحد الصحابة يقولها في رثاء أخيه قيس بن يزيد.

(٢) المرزباني: معجم الشعراء ص ٢٠٤.

المطاف مثبطاً، على الرغم من أن الحلم بات وشيكاً تحققه بما أبداه العارفون بمسالك الدروب من خلوها من عوائق المسير. وفي ذلك تمثيل وتصوير لحياة علي بن أبي طالب وتنازع الخلافة.

وإنما كان في البيت الأخير عزاء دون ما سبقه من أبيات، على الرغم من ضرورتها في الدلالة على الموقف وتوضيحه؛ لما في معنى البيت الأخير منفرداً من صدق التعبير عن إحساس المتعزي من جهة، وصدق التصوير لحال المتعزى به من جهة أخرى.

وبمثل ذلك أخرج الحافظ أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي عن عروة بن هشام أن عائشة رضي الله عنها كانت تتمثل بهذين البيتين من رثاء لبيد لأخيه أربد تتعزى بهما عن فساد الزمان وأهله:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في جلد كجلد الأجرب
يتحدثون مخافة وملاذة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب[1]

قال أبو معاوية: قالت عائشة رضي الله عنها: ويح لبيد لو أدرك هذا الزمان»[2].

ولما كانت المراثي أساساً جوهرياً في التأساة والتعزية عن الدنيا، وتقلب أحوال الإنسان فيها بالموت وخلافه من الحوادث، وواعظاً إلى الخير وفعله، وموجهاً إلى مكارم الأخلاق والتحلي بها، رغب بنو أمية في روايتها وتداول شعرها، «قال أبو الحسن المدائني كانت بنو أمية لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثي، قيل ولم ذاك؟ قيل: لأنها تدل على مكارم الأخلاق»[3].

وأخرج أبو الفرج بسنده عن عمر بن شبه أن عبد الملك بن مروان قدم الكوفة بعد

(١) الملاذة: الكذب، ويشغب: يجور عن القصد.
(٢) الحافظ أبو سليمان الخطابي: العزلة ص ١٨٤.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/٣٦٠.

قتله مصعب بن الزبير جلس لعرض أحياء العرب، فطلب من بعض الحضور أن ينشده قصيدة ذي الأصبع العدواني، التي يرثي بها قومه الذين كانوا كثيري العدد ثم وقع بأسهم بينهم فتفانوا، فأنشده[1]:

وليس المرءُ في شيءٍ ... من الإبرام والنقض
إذا أبرم أمراً خا ... له يقضي وما يقضي
يقول اليوم أمْضِيه ... ولا يملكِ ما يُمْضي
عذيرَ الحي من عدوا ... ن كانوا حية الأرض
بغى بعضهم بعضاً ... فلم يُبْقُوا على بعض
فقد صاروا أحاديث ... برفع القول والخفض
ومنهم كانت السادا ... ت والموفونَ بالقَرض
ومنهم حَكَمٌ يَقْضي ... فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِي
ومنهم من يُجيْزُ النا ... س بالسُّنَّة والفَرْضِ
وهم مَنْ وَلَدوا أشْبَوْا ... بسرِّ الحسَب المحَضِ
وممن ولدوا عامـ ... ـر ذو الطول وذو العرض
وهم بَوَّوا ثقيفاً دا ... ر ذُلٍّ ولا خَفْضِ[2]

ولم يكن فقد الموتى أو رثاؤهم مدعاة للتأساة والتعزية فحسب، بل إن فقد الرأي وخسارته مسوغ لذلك أيضاً، فقد تعزى علي بن أبي طالب رضي عنه عمّا أصابه من خسارة بأبيات دريد بن الصمّة:

أمرتُهُمُ أمري بمُنْعَرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى ... غوايتهم وإنني غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزيّة أرشد

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني: ٣/ ٩١-٩٢.

(٢) انظر تمام القصيدة في الأغاني ٣/١٠٦-١٠٨.

قال أبو الفرج الأصفهاني: «وهذه الأبيات تمثل بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند منصرفه من صفين»[1].

وتصـور هذه الأبيات صراع الـذات مع غيرهـا في قبول النصح ورفضه، وهي تعكس مع ذلك صدعاً نفسياً عميقاً في خسارة الرأي بعدم الانصياع له، ولكنها ترأبه، وتفصح عن إحساس الهزيمة، وتكابد في إخفائه، تمسكاً بالوفاء، فقد خسر دريد بن الصمّة رأيه ونصحه لقومه، غير أنه مضطر للالتزام بقرار القبيلة، وفاءً لسمعتها وحفاظاً على تماسكها الذي في تصدعه خسارة وأي خسارة.

ووجـد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذه الأبيات صورة نفسه ومشهد حاله، فالتمس عزاءً بها لما اجتهد يوم صفين في إقناع جيشه على عدم قبول التحكيم أول الأمـر، ثم رفضه اختيار الأشعري ليكون مفاوضاً ورغبته في عبد الله بن عباس ليقوم بذلك، وقد تيقن فريق منهم صواب رأي علي بعد فوات الأمر إذ دعوه لنقض العهد، ومع ذلك كان علي مضطراً للتعاضد مع جيشه الذي نَاصَره وعضده[2].

ومن الشعر الجاهلي ما كانت روايته مسلاة عن بلوى ألمت من مرض أو ما أشبه، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعكَ أبو بكر وبلال رضي الله عنهما، وكان بها وباء، فقلت يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول[3]:

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ٩/١٠.

(٢) انظر الشهرستاني: الملل والنِحل ص ١١٨-١١٩ وإبراهيم شعوط: الحقبة المثالية في الإسلام ج ١٩٩/٢.

(٣) هذا الشعر تفرد بروايته البخاري دون مسلم، وزاد ابن هشام في السيرة عامر بن فهيرة على الخبر (٦٢٤/٢).

كل امــرىء مُصَـبَّـحٌ في أهْــلِهِ والــمــوتُ أدْنَــى من شراك نَعْــلِهِ[1]

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا لَيْتَ شِعْــري هل أبِــيْتَــنَّ لَيْلَةً بوادٍ وَحَــوْلــي إذْخِــرٌ وجَــليلُ
وَهَــلْ أرِدَنْ يَوْمــاً مِياه مَجَــنَّــةٍ وهــل يَبْــدُون لي شَامَــةٌ وطَــفِــيْلُ

قالت عائشة: فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد»[2].

ومن الشعـر الجاهلي ما كان غاية الغايات في وصف المواساة والبر الموصول فاستعير لذلك في الإسلام، فقد خطب أبو بكر رضي الله عنه يوماً، وخاطب الأنصار ممثلاً لحالهم مع إخوانهم المهاجرين بأبيات طفيل الغنوي[3]:

جزى الله جعــفــراً حين أزلــقــت بنــا نَعْــلُنــا في الــواطئــين فَزَلَّــتِ
أبَــوْا أن يَمَــلُّونــا ولــو كانــت أمُّــنــا تلاقــي الــذي يَلْقَــوْنَ منــا لَمَــلَّتِ
هم أســكــنــونــا في ظلال بيوتــهــم ظلال بيوت أدْفَــأتْ وأكَــنَّــتِ

وهي عند ابن طباطبا «من الأبيات التي تخلب معانيها للطافة الكلام فيها»[4].

وقد يكون الشعر مقولاً في باطل ولهو فيستعان به على حق، وقد يكون في هزل فيصير أداة في جد، إذا كان الموقف متوحداً في عمومه دون دقائق خصوصه، ففي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكره المرزباني في كتاب له بإسناد عن

---

(١) يروى هذا البيت لعمرو بن مامه (انظر الإسلام والشعر ص ٨٠).

(٢) انظر الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/٢٧٣.

(٣) الصولي: أدب الكتاب ص ١٩٠ وانظر مراجع هامش التحقيق السيرة لابن هشام ٣/٩٩٦ وزهر الآداب ١/٧١ تحقيق محمد محي الدين.

(٤) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٨٦.

وطفيل الغنوي من فحول شعراء الجاهلية، وأوصف العرب للخيل.

عبد الملك بن عمير أنه قال: «أتى عمر رضوان الله عليه بحلل من اليمن، فأتاه محمد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن حاطب، فدخل عليه زيد بن ثابت رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين! هؤلاء المحمدون بالباب يطلبون الكسوة فقال: ائذن لهم يا غلام، فدعا بحلل، فأخذ زيد أجودها وقال: هذه لمحمد بن حاطب وكانت أمه عنده، وهو من بني لؤي، فقال عمر رضي الله عنه: أيهات أيهات، وتمثل بشعر عمارة بن الوليد[1]:

أَسَرَّكِ لما صَرَّع القوم نشوة ... خروجي منها سالماً غير غارم
بريئاً كأني قبل لم أكُ منهم ... وليس الخداعُ مرتضى في التنادم

وردها، ثم قال ائتني بثوب فألقه على هذه الحلل، وقال أدخل يدك فخذ حلة، وأنت لا تراها فأعطهم. قال عبد الملك: فلم أر قسمة أعدل منها»[2].

فقد وجد عمر بن الخطاب في بيتي عمارة بن الوليد ما يصور حاله في السلامة من الغرم والظلم، على الرغم من تباين الحق والباطل في موقفه وموقف عمارة بن الوليد؛ لأن نشوة السكر ونشوة الإمارة من طريق واحد في الغرم والظلم «إذ من شأن المنتشي أن يتلف ماله فيخرج غارماً، وإن للإمارة نشوة أدعى إلى الغرم، وسكرة أبعث على الظلم، ومثل عمر من يخرج منها وهو سالم، لا ظالم ولا غارم»[3].

وثمر عبد القاهر الجرجاني هذا الموقف من شعر عمارة بن الوليد وروايته بقوله:

---

(١) هو عمارة بن الوليد بن المغيرة، خطب امرأة من قومه فشرطت عليه ترك الشراب وكان وجده شديداً بها، ثم حنث بعهده وجاء امرأته شارباً، فقالت له: ألم تحلف أن لا تشرب فقال:

ولسنا بشرب أم عمرو إذا انتشوا ... ثياب الندامى عندهم كالغنائم
ولكننا يا أم عمرو نديمنا ... بمنزلة الريان ليس بعائم

(دلائل الإعجاز ص ١٠)

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ٩.

(٣) رشيد رضا: هامش تحقيق دلائل الإعجاز ص ٩.

«فإذن رب هزل صار أداة في جد، وكلام جرى في باطل ثم استعين به على حق، كما أنه رب خسيس توصل به إلى شريف، بأن ضرب مثلاً فيه وجعل مثالاً له... وعلى العكس فرب كلمة حق أريد بها باطل فاستحق عليها الذم... فبهذا ونحوه فاعتبر»[1].

وعلى ذلك فإن الاستعانة برواية الشعر الجاهلي في التأساة والتعزية إنما تعبر عن المناسبات الحادثة في الإسلام تعبيراً دقيقاً مناسباً موافقاً للمواقف الجاهلية التي يمثلها الشعر، وفي الدقة في انتخاب النموذج المناسب للحالة الحادثة ما يرفع من شأن العملية الذهنية بلاغة ونقداً، إذ أنه نشاط من الاستعارة التمثيلية على وجه من الوجوه في المماثلة والمشابهة، وهو نقد ضمني فيه الذوق والتحليل والموازنة والتوجيه والحكم في الانتخاب الأدبي.

جـ) القص:

اقتضى قص بعض الحكايات أو سرد الأخبار، رواية قصائد بعثتها المواقف المتوهجة فيها، ولم يكن قص ذلك على درجة واحدة من الغاية، فمنه ما كان مقصوده الوعظ بالحكاية بما فيها من حكمة دالة، ومنه ما كان مطلوبه الإمتاع لكنه لا يخلو من توجيه خلقي.

فمن القص بالوعظ حكاية حجيه بن المضرب التي روتها عائشة رضي الله عنها مع القصيدة التي تمثلت بها، تفسيراً لموقفها من أخيها عبد الرحمن بعد أن ضمت إليها أبناء أخيها محمد بن أبي بكر بعد مقتله في مصر. قالت عائشة رضي الله عنها وقد رغبت في إلحاق أبناء محمد بعمهم عبد الرحمن وقد شبا وترعرعا: «يا أخي! إني لم أزل أراك معرضاً عني منذ قبضت هذين الصبيين منك، والله ما قبضتهما تطاولاً عليك، ولا تهمة لك فيهما، ولا لشيء تكرهه، ولكنك كنت رجلاً ذا نساء، وكانا صبيين لا يكفيان من أنفسهما شيئاً، فخشيت أن يرى نساؤك منهما ما يتقذرون به من

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ١٠.

قبيح أمر الصبيان، فكنت ألطف لذلك وأحق بولايته، فقد قويا على أنفسهما وشبا، وعرفا ما يأتيان، فها هما هذان فضمهما إليك، وكن كحُجَيَّة بن المُضَرِّب أخي كندة، فإنه كان له أخ يقال له: معدان فمات وترك أُصَيْبِية صغاراً في حجر أخيه، فكان أبر الناس بهم وأعطفهم عليهم، وكان يؤثرهم على صبيانه، فمكث بذلك ما شاء الله. ثم إنه عرض له سفر لم يجد بداً من الخروج فيه، فخرج وأوصى بهم امرأته، وكانت إحدى بنات عمه، وكان يقال لها زينب، فقال: اصنعي ببني أخي ما كنت أصنع بهم، ثم مضى لوجهه فغاب أشهراً، ثم رجع وقد ساءت حال الصبيان وتغيرت، فقال لامرأته: ويلك! مالي أرى بني معدان مهازيل، وأرى بنيَّ سماناً؟ قالت: قد كنت أواسي بينهم، ولكنهم كانوا يعبثون ويلعبون، فخلا بالصبيان فقال: كيف كانت زينب لكم؟ قالوا سيئة، ما كانت تعطينا من القوت الاّ ملء هذا القدح من لبن. وأروه قدحاً صغيراً، فغضب على امرأته غضباً شديداً وتركها حتى إذا أراح عليه راعيا إبله قال لهما: اذهبا: فأنتما وإبلكما لبني معدان. فغضبت من ذلك زينب وهجرته وضربت بينه وبينها حجاباً، فقال: والله لا تذوقين منها صبوحاً ولا غبوقاً أبداً، وقال في ذلك:

لَجِجْنا ولجَّت هذه في التغضُّب — وَلَطِّ الحجاب بيننا والتَّجنُّب
وخطت بفردى إثمد جفنُ عينها — لتقتلني وشدَّ ما حُبُّ زينب
تلوم على مال شفاني مكانه — فلومي حياتي ما بدا لك واغضبي
رحمت بني مَعْدان أن قلَّ مالهم — وحق لهم مني ورب المحصَّب
وكان اليتامى لا يَسُدُّ اختلالهم — هدايا لهم في كل قعب مُشَعَّب
فقلت لعبدينا: أريحا عليهم — سأجعل بيتي بيت آخرَ مُعْزِب
وقلت خذوها واعلموا أن عمّكم — هو اليومَ أولى منكم بالتَّكسب
عيالي أحق أن ينالوا خصاصةً — وأن يشربوا رَنْقاً إلى حين مكسبي
أحابي بها من لو قصدت طاله — حريباً لآساني على كل مركب
أخي والذي إن أدعه لعظيمة — يجبني وإن أغضبْ إلى السيفِ يَغْضَب[1]

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٠/ ٣١٦-٣١٨ وانظر الآمدي: المؤتلف والمختلف ٢٧٩.

ويقال إن عائشة أنشدت هذه الأبيات لما مات أخوها عبد الرحمن[1]، على أن زينب زوج حُجَيَّة أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وطلبها حجية زمناً فحيل بينه وبينها[2].

وقص خالد بن صفوان لهشام بن عبد الملك حكاية النعمان وتنصره، إذ وضع تاجه، وخلع أطماره، ولبس أمساحه، وتهيأ للسياحة، فلزم الجبل حتى أتاه الأجل، وهو حيث يقول عدي بن زيد أخو بني تميم:

أيها الشامت المعيِّرُ بالدهـ ـر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ـام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنو شر وان أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الر وم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ـلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلـ ـساً فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ـملك عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذا أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال وما غبـ ـطة حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والإمّة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

قال: فبكى هشام حتى أخضل لحيته، وبل عمامته...، قال خالد بن صفوان يرد على من قال إنه أفسد على الأمير لذته: إليكم عني فإني عاهدت الله عز وجل ألا

(١) المرزباني: معجم الشعراء ص ٢٣٤.
(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٠/٣١٨.

أخلوَ بملك إلا ذكرته الله عز وجل[1].

وإذا كانت قصيدة حجية بن المُضرب مع سياق قصتها قد عمل الحال المماثل على طلبها، وأسعف التداعي على روايتها، وكان القصد إلى الوعظ كذلك باعثاً على سرد قصة النعمان ورواية شعر عدي بن زيد الملازم لها، فإن من القصص ما كان مطلوباً سرده استمتاعاً به وبالشعر الذي تتلازم روايته معه.

اجتمع عند معاوية بن أبي سفيان قوم فتذاكروا ملوك العرب حتى ذكروا الزبّاء بنت عفزر فقال معاوية: إني لأحب أن أسمع حديث حاتم طيء وماوية بنت عَفْزَر وكانت تلقب بالزبّاء فقال رجل من القوم: أفلا أحدثك يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى...

وتختلف قصة حاتم الطائي مع ماوية في أحداثها والشعر المنشد فيها بين رواية أبي عبيدة معمر بن المثنى وغيره من الرواة، ففي رواية أبي عبيدة[2] أن الزبّاء (ماوية) بنت عفزر كانت ملكة تتزوج من أرادت، فبعثت بغلمان لها وأمرتهم أن يأتوها بأوسم من يجدونه في الحيرة فجاؤها بحاتم... فراودته فاستعصم وتعلل بارتباطه بصاحبين له، ثم رحل معهما طالبين النجاة. فأنشأ حاتم يقول في ذلك يذكرها في شعره، وما حبس نفسه عن الريبة، وأنه عفيف ليس ممن يأتي الرِّيب.. فقال:

حننت إلى الأجبال أجبال طيء	وحنت قلوصي أن رأت سوط أحمرا
فقلت لها إن الطريق أمامنا	وإنا محيو رَبْعنا إن تيسرا
فيا راكِبَيْ عليا جديلة إنما	تسامان ضيماً مستبيناً فتنظرا
فما نكراه غير أن ابن مُلْقط	أراه وقد أعطى الظلامة أو جرى
وإني لمزجٍ للمطيّ على الوجى	وما أنا من خلانك ابنة عَفْزرا
وما زلت أسعى بين ناب ودارةٍ	بلحْيَانَ حتى خفت أن أتنصرا

(١) انظر: أبو الفرج الأصفهاني ٢/ ١٣٦-١٤٠.

(٢) انظر الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص ٤١٦ وما بعدها والأغاني ١٧/ ٢٩١-٢٩٣.

وحتى حسبت الليل والصبح إذ بدا حصانين سَيَّاكين جَوْنا وأشقرا
لشعبٌ من الريان أملك بابه أنادي به آل الكبير وجعفرا
أحبُّ إليَّ من خطيب رأيته إذا قلت معروفاً تبدل منكرا
تنادي إلى جاراتها إن حاتماً أراه لعمري بعدنا قد تغيّرا
تغيّرت إني غير آت لريبة ولا قائل يوماً لذي العرف منكرا
فلا تسأليني واسألي أيُّ فارس إذا بادر القوم الكنيف المُسَتَّرا
فلا هي ما ترعى جميعاً عشارها ويصبح ضيفي ساهم الوجه أغبرا
فلا ترني أمشي بسيفي وسطها تَخَفْني وتضمر بينها أن تجزَّرا
وإني لَتَغْشى أبعد الحي جفنتي إذا وَرَق الطَّلْح الطوال تحسَّرا
فلا تسأليني واسألي بي صحبتي إذا ما المطيُّ بالفلاة تضوّرا
وإني لوهاب قطوعي وناقتي إذا ما انتشيت والكُمَيْتُ المصدّرا
وإني كأشلاء اللجام ولن ترى أخا الحرب إلا ساهم الوجه أغبرا
أخو الحرب إن عَضَّت به الحرب عضّها وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا
وإني إذا الموت لم يك دونه ندى الشبر أحمى الأنف أن أتأخرا
متى تبغ ودّاً من جديلة تلقه مع الشَّنْءِ منه باقياً متأثرا
إذا حال دوني من سلامان رملةٌ وجدت توالي الوصل عندي أبترا(١)

وفي رواية غير أبي عبيدة معمر بن المثنى(١) أن حاتماً اجتمع عند ماوية مع رجلين تذهب رواية إلى أنهما أوس بن حارثة بن لأم الجديلي وزيد الخيل النبهاني، وتذهب رواية أخرى إلى أنهما النابغة الذبياني ورجل من الأنصار من النبيت. فقالت لهم انقلبوا إلى رحالكم وليقل كل واحد منكم شعراً يذكر فيه فعاله ومنصبه، فإني أتزوج أكرمكم وأشعركم، فانصرفوا ونحر كل واحد منهم جزوراً ولبست ماوية ثياباً لأمة لها وأتت كلاً منهم تستطعمه فوقفت على حقيقة كرمهم، ثم استئذنتهم في الصباح فأنشدها النبيتي:

---

(١) انظر أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٧/ ٢٩٤-٢٩٦.

هلا سألت النبيتيين ما حسبي   عند الشتاء إذا ما هبت الريح
وردّ جازرهم حزماً مصرَّمة   في الرأس منها وفي الأصلاء تمليح
وقال رائدهم سيان ما لهم   مثلان مثل لمن يرعى وتسريح
إذا اللقاح غدت ملقى أصرَّتها   ولا كريم من الولدان مصبوح

فقالت: لقد ذكرت مجهدة. ثم استنشدت النابغة فأنشدها:

هلا سألت بني ذبيان ما حسبي   إذا الدخان تَغَشّى الأشمط البرما
وهبت الريح من تلقاء ذي أُرُلٍ   تزجي مع الليل صُرّادها الصِّرَما
إني أتمم أيساري وأمنحهم   مثنى الأيادي وأكسو الجفنة الأدما

فلما أنشدها قالت: ما ينفك الناس بخير ما ائتدموا، ثم قالت يا أخا طيء أنشدني فأنشدها:

أماويَّ قَدْ طالَ التجنُّبُ والهَجْرُ   وقد عَذَرتْني في طِلابِكُمُ العُذْرُ
أماويَّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ   ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
أماويَّ إني لا أقولُ لسائلٍ   إذا جاءَ يوماً حلَّ في مالنا النَّذْرُ
أماويَّ إما مانعٌ فمبيّنٌ   وإما عطاءٌ لا يُنَهْنِهُه الزَّجرُ
أماويَّ ما يُغْني الثَّراءُ عن الفتى   إذا حشرجت يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ
إذا أنا دلّاني الذين أحبُّهم   بملحُودةٍ زَلْجٍ جوانبها غُبْرُ(١)
وراحوا سراعاً يَنْفُضون أكفَّهم   يقولون قد دَمَّى أناملَنا الحَفْرُ
أماويَّ إن يُصْبِحْ صَدايَ بقَفْرةٍ   من الأرضِ لا ماءٌ لَدَيَّ ولا خَمْرُ
تَرَىْ أن ما انفقت لم يك ضَرَّني   وأن يَدِي مما بَخِلْتُ به صِفْرُ
وقد علمَ الأقوامُ لو أنَّ حاتماً   أرادَ ثراءَ المالِ كانَ لهُ وَفْرُ
فإني لا آلو بمالي صنيعةً   فأَوَّلُهُ زادٌ وآخِرُهُ ذُخْرُ
يُفَكُّ به العاني ويُؤْكَلُ طيّباً   وما إنْ يُعَرُّ به القداحُ ولا القَمْرُ(٢)

(١) زلج: ملساء.

(٢) رواية الديوان «تُعَرِّيه القداح ولا الخمر».

ولا أظلمُ ابنَ العَمِّ إن كان إخوتي شُهوداً وقد أودى بإخوته الدَّهر
غنينا زماناً بالتصعْلُكِ والغِنى كما الدَّهرُ في أيّامِهِ العُسْرُ واليُسْرُ
لَبِسْنَا صروف الدَّهر لِيناً وغِلْظَةً وكُلًّا سَقَاناهُ بكأسيهما العصر[1]
فما زادنا بَغْياً على ذي قرابةٍ غِنَانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ
فقِدماً عَصَيْتُ العاذلات وسُلِّطت على مُصْطَفى مالي أناملي العَشْرُ
وما ضرّ جاراً يا ابنة القومِ فاعلمي يجاورني ألّا يكون له سَتْرُ
بِعَيْنَي عن جاراتِ قومي غَفْلَةٌ وفي السَّمْعِ مني عن حديثهم وَقْرُ

«فلما فرغ حاتم من إنشاده دعت بالغداء وكانت قد أمرت إماءها أن يقدمن إلى كل رجل منهم ما كان أطعمها، فقدمن إليهم ما كانت أمرتهن أن يقدمنه إليهم، فنكس النبيتي رأسه والنابغة، فلما نظر حاتم إلى ذلك رمى بالذي قدم إليهما وأطعمهما مما قدم إليه، فتسللا لواذاً، وقالت إن حاتماً أكرمكم وأشعركم، فلما خرج النبيتي والنابغة قالت لحاتم: خل سبيل امرأتك، فأبى فزودته وردته، فلما انصرف دعته نفسه إليها، وماتت امرأته، فخطبها فتزوجته»[2].

وأياً كان شأن الاختلاف في جزئيات الحكاية بين رواية أبي عبيدة وغيره، فإن الشعر يشكل جانباً من مقاصد الطالب للقص والسرد، ولا بأس من تباين المعاني في القصيدتين تبعاً لاختلاف الروايتين، فمتعلقهما واحد في المنحى العام للحماسة، وإن اختلفتا في درجة هذه الحماسة، إذ القصيدة الثانية أعظم انفعالاً، وأشمل مفاخرة، وأجمل أدباً، وأوثق ارتباطاً بمكارم الخلق والشرف.

لكن الاحتراس يقضي بالقول إن حاتماً فشا ذكره، وجرت سماحته مجرى المثل، وروى عنه في ذلك الأعاجيب وأكثرها من صرف الحديث، ومطالب التسليه والقص، وسبيل الرواة في هذه الصناعة بالقص لأخبار جود حاتم سبيلهم في أخبار عنترة وبطولاته وأبي العتاهية وزهدياته وأبي نواس ومجونه، يفتعلون الأخبار ويتقنون

(١) يروى «الدهر» بدل «العصر».
(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٧/٢٩٦.

الأدوار لغرض من أغراضهم الدينية أو المذهبية الخاصة، أو الدنيوية بالتقرب لذوي السلطان من الملوك الذين يستعان بها وبالشعر على السهر عندهم، والملوك لا تستقصي كما يقول ابن سلام[1]، أو بإرضاء العقلية الشعبية في ميلها إلى النادر، وتعلقها بالغريب، ولو كان خيالاً أو أكاذيب ملفقة.

ومن نافل القول الإشارة إلى أن الشرف خلقاً وسلوكاً هو الملتقى الذي تجد فيه رواية القصائد الثلاث غايتها فيه، فإنكار الذات، وكبح جماح هواها، وإيثار الحق، والتضحية في سبيل سيادته، هو معنى الحماسة الذي جرى الانفعال به من خلال القص وطلبه تداعياً أو وعظاً أو إمتاعاً.

د) الطرافة[2]:

ومن الشعر الجاهلي ما كان الفن أساساً في روايته، بمعنى أن الطبيعة الفنية المتأصلة في الناقد حملته على توجيه الرواية نحو لون من الشعر يحقق الجمال والامتاع بغرابته وندرته، وقد حفلت المجالس الأدبية برواية هذا اللون، فقد قيل للأوسية ـ وهي امرأة حكيمة في العرب ـ بحضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أي منظر أحسن؟ فقالت: قصور بيض في حدائق خضر، فأنشد عمر بن الخطاب لعدي بن يزيد[3]:

كدمى العاج في المحاريب أو كالـ ـبيض في الروض زهرُهُ مستنير

وكانت مجالس الأمويين حافلة برواية شعر الطرافة، وتُعَد مجالس عبد الملك بن مروان ظاهرة مميزة في هذا المجال، إذ سأل جلساءه يوماً أي المناديل أشرف؟ فقال قائل منهم: مناديل مصر كأنها غرقىء البيض، وقال آخرون: مناديل اليمن كأنها نور

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٦٠.

(٢) الطرافة باب من أبواب الانتخاب عند أصحاب المعاني (انظر الكامل: ١/٣٠٨) ومن معاييرها الغرابة والندرة والحسن.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٤٥.

الربيع، فقال عبد الملك: مناديل أخي بني سعد عبدة بن الطبيب قال[1]:

لما وردنا رفعنا ظلَّ أرديةٍ وفار باللحم للقوم المراجيل
ورداً وأشقر لم يُنْهِئْهُ طابخه ما غير الغلي فهو مأكول
ثُمَّتْ قمنا إلى جرد مسوَّمة أعرافهن لأيدينا مناديل

وفي مجلس آخر قال عبد الملك بن مروان لولده وأهله: أي بيت ضربته العرب على عصابة ووصفته أشرف جواءً وأهلاً وبناءً؟ فقالوا فأكثروا، وتكلم من حضر فأطالوا، فقال عبد الملك: أكرم بيت وصفته العرب بيت طفيل الذي يقول فيه[2]:

وبيتٍ تهبُّ الريح في حجراته بأرض فضاء بابه لم يحجب
سماوته أسمالُ بُرْد محبَّرٍ وصَهْوَتُه من أتحميّ مُعَصَّب
وأطنابه أرسان جرد كأنها صدور القنا من بادىء ومعقِّب
نصبت على قوم تدر رماحهم عروق الأعادي من غرير وأشيب

وطلب عبد الملك من بعض جلسائه أحكم أبيات الجاهلية وأمدحها شجاعة وجوداً ثم سأل عن أحسن الناس وصفاً. فقال مجالسه: الذي يقول[3]:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

والذي يقول:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

والذي يقول:

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ومن خاله ومن يزيد ومن حجر

---

(١) المبرد: الكامل ٢/١٤٦ والأغاني ٢١/٢٦ طـ دار الثقافة ـ بيروت.
(٢) أبو الفرج الأصفهاني ١٥/٣٥٣ طـ دار الكتب.
(٣) الحصري القيرواني: زهر الآداب ٢/٧٦٧.

سماحة ذا مع بر ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

وعن أبي عبيدة قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن الغساني عن شريك بن الأسود قال: كنا ليلة في سمر بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وهو يومئذٍ والٍ على البصرة، فقال لجلسائه: أخبروني بسابق الشعراء والمُصَلِّي منهم (الذي يجيء بعد السابق) قلنا: أخبرنا أنت أيها الأمير، وكان أعلم العرب بالشعر في عصره، فقال: السابق الذي سبق في المدح هو الذي يقول:

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي إلاّ وشيجه وتغرس إلاّ في منابتها النخل

فأما المُصَلِّي فالذي يقول:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث، أي الرجال المهذب[1]

وكثيرة هي المجالس الخاصة والعامة التي كان طريف الشعر الجاهلي مادة سمرها وحديثها وإمتاعها، إذ روي فيها لكثير من فحول الشعر الجاهلي مثل أبي داود الإيادي وعبيد بن الأبرص[2]، وذي الاصبع العدواني[3]، وعروة بن الورد[4]، وسويد بن أبي كاهل وحريث بن محفظ المازني[5] وغيرهم[6]، وفي الإشارة الدالة غناء عن التتبع والإفاضة.

* * *

(١) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ١ /١٨٧.
(٢) انظر: أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٦٧/٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٠٠-١٠١.
(٤) انظر المصدر السابق ٧٤/٣.
(٥) انظر ابن سلام: طبقات فحول العشراء ١٩٤/١.
(٦) انظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٢٥٦/١ ط دار المعارف وانظر طبقات فحول الشعراء ١٥٣/١.

مما سبق من عرض وتحليل لنماذج اتجاه أبيات المعاني الشريفة يمكن الاطمئنان إلى القول إن الشعر الجاهلي الذي تألقت فيه الفطرة بحقائق كونيه وإنسانية وقيم خلقية وفكرية، حسنت روايته، وجاد موقعه في الإسلام بتوازن بين التقويم الخلقي والإحساس الجمالي.

ومنح هذا الاتجاه الشعر الجاهلي حركة ونشاطاً متعدد الجوانب بتعدد مسوغات روايته، وامتداداً وديمومة في حركة تناقله في الأجيال التالية، فضلاً عن قيم نقدية من الأصالة الخلقية والإصابة الفكرية والجودة الفنية، يقول الجاحظ: «والعرب أوعى لما تسمع، وأحفظ لما تأتي (أي تروي)، ولها الأشعار التي تقيد عليها مآثرها، وتخلد لها محاسنها، وجرت من ذلك في إسلامها على مثل عادتها في جاهليتها، فبنت بذلك لبني مروان شرفاً كثيراً، ومجداً كبيراً، وتدبيراً لا يحصى»[1].

٢ ـ الاتجاه الثاني: شعر الأغراض العامة

إن محفوظ المسلمين (الصحابة والتابعين) من أغراض الشعر الجاهلي المعروفة كالغزل والفخر والرثاء والهجاء أضحى يجد نفاذه مباحاً في المناسبات العارضة، في مجالس الترويح عن النفس، أو في معارض ذكر أمر الجاهلية التي كانوا عليها، وهو محفوظ ذو شأن في كمّه، ولا يشك في تنوعه وتعدد اتجاهاته.

فقد كان أبو بكر رضي الله عنه عالماً بالأخبار والأنساب، مقدماً في كل خبر[2]، يدل على ذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أن يلقى أبا بكر ليتعلم هنات القوم (قريش) في هجائه لهم، إذ قال صلى الله عليه وسلم له: «لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها» وذلك حين قال حسان «والذي بعثك بالحق لأفرينّهم فري الأديم»[3]، ولما كان الشعر من لوازم الأخبار ومقتضيات مجالس العلم والأنساب، فربما أنشده أبو بكر أو استنشده في مجالسه التي كانت تؤمها قريش، «قال

(١) البيان والتبيين ٣/٣٦٦.

(٢) ابن عبد ربه: العقد ٣/٢٧٤.

(٣) مسلم: صحيح مسلم ١٦/٤٩.

ابن عباس رضي الله عنه: كانت قريش تألف منزل أبي بكر رضي الله تعالى عنه لخصلتين: العلم والطعام، فلما أسلم أسلم عامة من كان يجالسه»[١] ولذلك فلا يبدو عجباً من الأمر أن تجد رواية الشعر طريقها إلى أسرته، فتروي عائشة الشعر وتروي أسماء كذلك منه.

روت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كثيراً من الشعر، ويقال إنها كانت تروي جميع شعر لبيد[٢]، فقد أخبر أبو بكر الأنباري بسنده عن أبي مليكة عن عائشة أنها كانت تتمثل بهذا البيت:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خَلْق كجلد الأجرب

ثم قالت رضي الله عنها: رحم الله تعالى لبيداً، إني لأروي له ألف بيت[٣]. وكانت تقول: «الشعر منه حسن ومنه قبيح، خذ الحسن ودع القبيح، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك»[٤]

ولم ترو أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها من الشعر ما روته عائشة رضي الله عنها، وتسند إليها المصادر الأدبية والتاريخية نثراً[٥] وشعراً روته لزيد بن عمرو بن نفيل وشعراً لورقة بن نوفل، فعن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: قال زيد بن عمرو بن نُفَيْل:

عزلت الجنَّ والجِنَّانَ عني ... كذلك يفعل الجَلْدُ الصبورُ
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صَنَمَيْ بني غَنيمٍ أزورُ
ولا هُبَلًا أدين وكان ربّاً ... لنا في الدهر إذ حلمي صغيرُ
أرباً واحداً أم ألف ربٍّ ... أدين إذا تُقُسِّمتِ الأمورُ

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج٤/٧٦. (٢) ابن رشيق القيرواني: العمدة ١/٣٠.

(٣) أبو بكر الأنباري (محمد بن القاسم) شرح القصائد السبع الطوال ص ٥١١ والعزلة: ص١٨٤.

(٤) السيوطي: المزهر ٢/٣٠٩. (٥) انظر ابن هشام: السيرة النبوية ١/٢٤٣.

ألــم تعــلـم بأن الله أفــنــى رجــالاً كان شأنــهــم الــفــجــورُ
وأبــقــى آخــرين ببــرٌ قوم فيربــو منــهــم الــطفــلُ الــصـغـيرُ
وبــينــا الــمــرءُ يعــثــرُ ثاب يومــاً كمــا يتــروَّح الــغــصــنُ الــنـضـير

فقال ورقة بن نوفل لزيد بن عمرو بن نُفَيْل:

رشــدت وأنــعمت ابن عمــرو وإنمــا تجــنــبــت تنــوراً من الــنــار حاميا
بدينــك ربّــاً ليس ربّــاً كمــثــله وتــركــك جنَّــانَ الجبــالِ كمــا هيا
... أدين لربٌّ يســتــجيبُ ولا أُرى أدينُ لمــن لا يســمــع الــدهــر داعيا
أقــول إذا صلَّيتُ في كل بيعــةٍ تبــاركــت قد أكثــرت باسمــك داعيا

ولا يكاد يعرض لعمر بن الخطاب أمر إلا أنشد فيه بيتاً من الشعر(١)، من ذلك أن عمر رضي الله عنه نظر إلى عبد الله بن عباس وهو يتكلم فقال:

شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم

والشعر لأبي أخزم الطائي وهو جد أبي حاتم الطائي أو جد جده، وكان له ابن يقال له أخزم، فمات وترك بنين فتوثبوا يوماً على جدهم أبي أخزم فأدموه فقال:

إن بنــي رمَّــلونــي بالــدّم شنــشــنــة أعــرفــهــا من أخــزم

أي أنهم أشبهوا أباهم في طبيعته وخلقه... فأراد عمر رحمه الله إني أعرف فيك مشابه من أبيك، في رأيه وعقله، ويقال إنه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس»(٢). واشتهر ـ كما سبقت شواهد ذلك ـ بأنه كثيراً ما كان يسأل وفود القبائل عن شعرائهم، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم، وقد ينشدها هو متعجباً مستحسناً.

ومحفوظ ابن عباس رضي الله عنه وفير من الشعر، حيث كان إذا سُئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً، ولم تخل مجالسه في التفسير أو التعليم أو المسامرة من

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٢٤١.
(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٣١.

إنشاد الشعر، من ذلك ما يورد عن الشعبي قال: كنا يوماً عند ابن عباس وهو في ضفة زمزم يفتي الناس، إذ قال أعرابي: أفتيت الناس فافتنا، قال هات. قال: أرأيت قول الشاعر المتلمس:

لذي الحلمِ قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصا ... وما عُلِّم الإنسان إلا لِيَعْلَما

قال ابن عباس: ذلك عمرو بن حُمَمة الدَّوسي، قضى على العرب ثلاثمائة سنة، فكبر فألزموه السابع من ولده، فكان معه، فكان الشيخ إذا عقل كانت بينه وبينه أن تقرع العصا حتى يعاوده عقله، وذلك قول المتلمس اليشكري من بكر بن وائل: لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا. قال: ذو الأُصبع العدواني بعد ذلك بدهر:

عَذيرَ الحي من عدوا ... ن كانوا حيّة الأرض

... ومنهم حكم يقضي ... فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِي

يعني عامر بن الظَّرب(١).

ولا يقل شأناً عن ذلك محفوظ المسلمين من الصحابة والتابعين ممن اتخذ المدن المخططة الجديدة في العراق سكناً له، فقد كان أهل الكوفة يكثرون من تناشد الأشعار على الرغم من المحنة التي كانوا فيها زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حتى قال لهم: «إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حَلَقاً عزين، تضربون الأمثال، وتناشدون الأشعار»(٢). وعن مطرِّف قال: صحبت عمران من الكوفة إلى البصرة، فما أتى يوم إلا وأنشدنا فيه شعراً، ويقول في ذلك: «إن لكم في المعاريض لمندوحة عن الكذب»(٣).

تلك جملة أخبار عن طائفة ممن روى الشعر الجاهلي من الصحابة السابقين

---

(١) أبو حاتم السجستاني: المعمرون والوصايا ص ٤٥.

(٢) نقلاً عن مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٠٣.

(٣) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح انظر الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٣١.

الأولين الذين كانت الرواية لديهم في أطر من مناسبات السؤال والعلم وتداعي الأحوال المنبهة عليها.

وثمة طائفة أخرى من مسلمة الفتح كانت علماً مميزاً على رواية الشعر في الجاهلية، فقد شهر «أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار، وعلماءهم بالأنساب والأخبار؛ مخرمة بن نوفل بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف[1] ، وحويطب بن عبد العزى[2]، وعقيل بن أبي طالب[3] »[4].

وطائفة ثالثة اختصت برواية شعر شاعر في الجاهلية وعاشت دهراً في الإسلام، «ولم يزل في ولد زهير شعر، ولم يتصل في ولد أحد من فحول الجاهلية ما اتصل في ولد زهير»[5]، وكان الحطيئة راوية زهير وآل زهير[6] ولم يكن أحد أروى من الفرزدق لأحاديث امرىء القيس وأشعاره[7]. وكان أبو ذؤيب الهذلي راوية لساعدة بن جؤيَّة الهذلي[8].

زد على ذلك ما كان مدوناً من شعر الجاهلية «فقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول، وما مدح هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بني مروان أو صار منه»[9].

---

(١) كان من معمري قريش، وهو من مسلمة الفتح، مات في آخر خلافة معاوية سنة ٦٠هـ.

(٢) أسلم عام الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم، عمِّر مائة وعشرين سنة، مات في خلافة معاوية سنة ٤٥هـ.

(٣) أخو علي بن أبي طالب وجعفر، أسلم عام الفتح، وكان الناس يأخذون عنه بمسجد المدينة مات في خلافة معاوية.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ٣٢٣-٣٢٤.

(٥) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/ ١١٠.

(٦) المصدر نفسه ١/ ١٠٤.

(٧) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/ ١٠٤.

(٨) ابن قتيبة: الشعر والشعراءة ٢/ ٦٥٣.

(٩) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥.

وتعطي هذه المعلومات دلالة على استمرارية حركة رواية الشعر الجاهلي في الإسلام، وإذا كنا لا نعرف كثيراً عن نوعية هذا الشعر المروي لدى الطائفة الأولى والثانية، فإنه يمكن القول إن متعلقه غالباً بذوق الراوية وميله، وطاقته واجتهاده، وملحوظ في ذلك كله التنوع في الرواية بما يغطي تعدد الأغراض، وتغاير المجالات، وتناسب الأخبار والأحداث.

ولا تثريب على الراوية المسلم في محفوظه إن روى شعراً خارجاً عن جادة القوامة مما يمثل الجاهلية في فسادها السلوكي، أو نقل مرويات منافرة للصواب مما عده الجاهليون قيماً اجتماعية كانت محور مفاخراتهم مثل شرب الخمر واللهو بالميسر والدبيب إلى النساء، ما دام مقصود الراوية الاستدلال والتمثيل، ولم ينزع فيها منزع الترويج لها أو الإغراء بالاستمتاع بها؛ لأن الإسلام لم يهدم مما قبله إلا ما كان شركاً أو داعية إلى الشرك، وبذلك جرت عادة العرب في إسلامها على مثل عادتها في الجاهلية من رواية الشعر والخبر والنسب والأيام والمقامات ونحوها[1].

وعلى ذلك لم يكن صائباً كل الصواب الرأي الذي يذهب إلى القول «إن هناك شطراً من الأدب الجاهلي قبره المسلمون عمداً في القرن الأول، وإلى القارىء البيان:

كانت الحياة الجاهلية تختلف عن الحياة الإسلامية اختلافاً شديداً، ففي الأعوام التي سبقت الإسلام كانت في الجزيرة عادات وتقاليد وأوضاع لها ألوان وثنية أو نصرانية أو يهودية، فلما جاء الإسلام تبدلت تلك التقاليد، وصار من اللائق تناسي ما يمسها من الأدب الجاهلي وصفاً أو شرحاً أو تعليلاً، ورأى العرب المسلمون أن في ذلك الأدب جوانب خطيرة يجب إسقاطها والقضاء عليها صوناً للوحدة الإسلامية، وليس في هذا شيء منكر، لأن الأدب يتصل أكثره بحياة الناس وسيرهم وأخبارهم وأخلاقهم من شمائل مرضية، أو طباع ذميمة. . . أفيكون من الحزم أن يعود الرواة إلى ذلك الأدب فيرووه ويحيوه وفيه آثار لما سكن وهدأ من قديم الأحقاد.

---

(١) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب جـ ١/٢٨١.

إن العـرب في الصدر الأول من الإسلام تناسوا عامدين أبواباً كثيرة من الأدب الذي كان محفوظاً قبيل الإسلام، صيانة للوحدة الإسلامية من عبث الأهواء»[1].

فعلى الرغم من أن هذا التحليل والتعليل يصدق على موقف المسلمين الآخذ بالعزم في رواية الشعر الملتزم بالحكمة والقيم الخلقية، فإنه لا يلتفت إلى الوجه الآخر للموقف الآخذ بالإباحة في حدود المأثور من القول: ناقل الكفر ليس بكافر، أو أن الراوية حاك وليس على الحاكي عيب ولا عليه تبعة، إذا هو لم يقصد بحكايته أن ينصر باطلاً أو يسوء مسلماً، فالمنظور هو الغرض الذي له روي الشعر، ومن أجله أُريد، وله دُوِّن[2].

على أننا إذا أخذنا بالمرحلية التي قال بها بعض أهل العلم، وأن النهي إنما كان في بداية عهد الإسلام بدليل طلب المغيرة بن شعبة أن ينشده لبيد شعراً فقال: «إن شئت ما عفي عنه»[3] فإن الرأي السابق تبدو المبالغة فيه واضحة «تناسوا عامدين أبواباً كثيرة من الأدب» فضلاً عن افتقاده إلى الدليل، ولواذه بالتعميم الزمني طوال القرن الأول.

ولهـذا الرأي محظور خطير أيضاً، وهو إسناد تبعية ضياع الشعر الجاهلي إلى تعمد المسلمين، علماً أن أسباباً كثيرة تضافرت في ذلك، يقف على رأسها ذهاب الشعـر وسقوطه قبل الإسلام، قال أبو عمرو بن العلاء: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلّا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير»[4] ويدلل ابن سلام على ذلك «بقلة ما بقي في أيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد، اللذين صحَّ لهما قصائد بقـدر عشـر، وإن لم يكن لهمـا غيرهن، فليس موضعهمـا حيث وضعا من الشهرة

(١) زكي مبارك: ؛ النثر الفني ص ٥٣-٥٤.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ٩.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٥/٣٦٩.

(٤) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ص ٢٥.

والتقدمة، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة»[1].

حقاً لقد كان للجهاد والفتوح أثر في انشغال المسلمين عن رواية الشعر من غير توقف عن إبداعه وإنشائه، فلما اطمأنوا بالأمصار راجعوا روايته، وعادوا سيرتهم الأولى.

ثم ما فتئت أن عرفت طبقة من الرواة أضحى الشعر من الأسباب المعينة لها على العلم، وكان محفوظها متميزاً بالغزارة، فالشعبي يقول: «ما أنا بشيء من العلم أقل من رواية للشعر، ولو شئت أنشد شعراً شهراً لا أعيد بيتاً لفعلت»[2].

وكان قتادة بن دعامة السدوسي من رواة الفقه عالِماً بالعرب وبأنسابها، «ولم يأتنا عن أحد من رواة الفقه من علم أصح من شيء أتانا عن قتادة. أخبرنا عامر بن عبد الملك قال: كان الرجلان من بني مروان يختلفان في الشعر فيرسلان راكباً فينيخ ببابه (يعني قتادة بن دعامة) فيسأله عنه ثم يشخص»[3].

ولما كانت رواية اللغة والشعر مجال اهتمام الناس في القرن الأول الهجري وما بعده، صار الرواة يفخرون بمقدار ما يروون من أشعار العرب وما يحفظون من شواهدها، من ذلك أنه روي عن الأصمعي أنه قال: «أحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة فيها المائة والمئتان»[4]. وكان أبو مسحل يروي عن علي بن المبارك الأحمر أربعين ألف بيت شاهد في النحو[5]، وكان ثعلب يقول: «ما ندمت على شيء كندمي على

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/١٠٩.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٦١.

(٤) ابن العماد الجنبلي: شذرات الذهب ٢/٣٧.

(٥) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص ١٣٥.

ترك سماع الأبيات التي كان يرويها أبو مسحل عن علي بن المبارك الأحمر[1]».

ولا جرم أن رواة الشعر الجاهلي في هذا المجال (من الأغراض العامة) كانوا ينسبون أكثر ما يتناقلونه، وكان التساؤل قائماً بينهم فيما جرى الشك في نسبته منذ العقود الأولى لهذا القرن، ومن أمثلة ذلك أن النابغة الجعدي دخل على الحسن بن علي فودّعه وهو يريد البادية ليشرب لبنها، ويشم من شيحها، «فقال له الحسن: أنشدنا من بعض شعرك، فأنشده:

الحمد لله لا شريك له ... من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال له: يا أبا ليلى! ما كنا نروي هذه الأبيات إلاّ لأمية بن أبي الصلت. قال يابن رسول الله، والله إني لأول الناس قالها، وإن السروق من سرق أمية شعره»[2].

ومع أن هذه الصورة البسيطة من صور النسبة ذات دلالة على مراعاة الصدق والحرص على توخي الحذر والدقة في الرواية، إلاّ أن النسبة غير الإسناد فيما اصطلح عليه الرواة؛ لأن الإسناد لا يراد به إلا شهادة الزمن على اتصال النسب العلمي بين راوي الشيء وصاحب الشيء المروي حتى يثبت العلم بذلك على وجه من الصحة، وهذا لا يستقيم إلاّ إذا صارت الرواية صناعة علمية، ولم يكن في العرب شيء من ذلك بالتحقيق، إلاّ بعد قيام دولة بني مروان حين اتخذوا المؤدبين لأولادهم، وذلك هو العهد الذي تسلسل فيه إسناد الحديث أيضاً لتشعب طرقه[3].

بقي أن نشير إلى أن هذه المرويات العامة في الشعر الجاهلي لم تخل من لمحات فنية تحيد بها عن النقل المجرد، وتنعطف بها إلى الأداء المتفاعل فنياً، حيث يروى أن حسان بن ثابت رضي الله عنه كان إذا قيل تنوشدت الأشعار في موضع كذا

(١) المصدر نفسه ص١٣٥.

(٢) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ١/ ١٢٧-١٢٨.

(٣) انظر مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب ج ١/ ٢٨٧-٢٨٨ وص ١٩٤ وما بعدها.

وكذا يقول: فهل أنشدت كلمة الحويدرة:

بكرت سميّةُ غدوةً فتمتعي

قال أبو عبيدة: وهي من مختار الشعر أصمعية مفضلية[1].

وإذا كان الخبر مجرداً من التحديد الزماني (الجاهلية أو الإسلام) فإن طبيعة الشاعر الفنية في تذوق الشعر وإدراك الجمال وسيلة من وسائل المعرفة قبل أن تكون متعة شخصيّة، وهي بعد ذلك صفة ذات سيادة وديمومة في ميله ونشاطه، وعلى ذلك فلو قدر أن حساناً كان ميالاً لذلك في الجاهلية فليس بحائد عنه في الإسلام[2].

ويقف عبد الملك بن مروان علماً على ظاهرة النقد الأدبي في رواية الشعر، والأمثلة التي تدل على ذلك كثيرة، ليس المجال للإفاضة فيها، غير أن مثالاً يعطي الدلالة على الفكرة التي بصددها البحث. فقد روي أن عبد الملك بن مروان لما أنشده كثير قوله:

علي ابن أبي العاص دلاص حصينة ... أجاد المُسَدِّي سردها وأذالها

قال: هلا مدحتني كما مدح الأعشى صاحبه فقال:

وإذا تكون كتيبة ملمومة ... شهباء يخشى الرائدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جنة ... بالسيف تقتل معلماً أبطالها

فقال له كثير: «إنه وصف صاحبه بالخرق، وأنا وصفتك بالحزم»[3].

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٣/٢٧١.

(٢) ومن هذا الباب أيضاً ما روي أن حساناً سئل من أشعر الناس؟ فقال: أحياً أو رجلاً؟ فقيل له: حياً: فقال: أشعر الناس حياً هذيل (العمدة ١/٥٥).

(٣) المرتضي: أمالي المرتضي ١/٢٧٨ وانظر مثالاً آخر في زهر الآداب ج ٢/١٠٨٨ ومثالاً ثالثاً في ديوان المعاني ١/٢٧.

فقد جعل عبد الملك قول الأعشى نموذجاً يحاكم إليه الشعر الإسلامي، لأنه أصيل في بابه من الثناء بالشجاعة، والمدح بالإقدام، دقيق في إصابة الغرض وتحقيق الغاية.

ومقطع القول الذي يمكن أن ينتهي إليه البحث في رواية الصحابة والتابعين أجمله الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر: «ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم، ولا من أولي النهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلّا وقد قال الشعر أو تمثل به، أو سمعه فرضيه؛ ما كان حكمة أو مباحاً، ولم يكن فيه فحش ولا خنا، ولا لمسلم أذى، فإن كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء»[1].

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٣/١٤٧.